د. عبد اللّه سرور

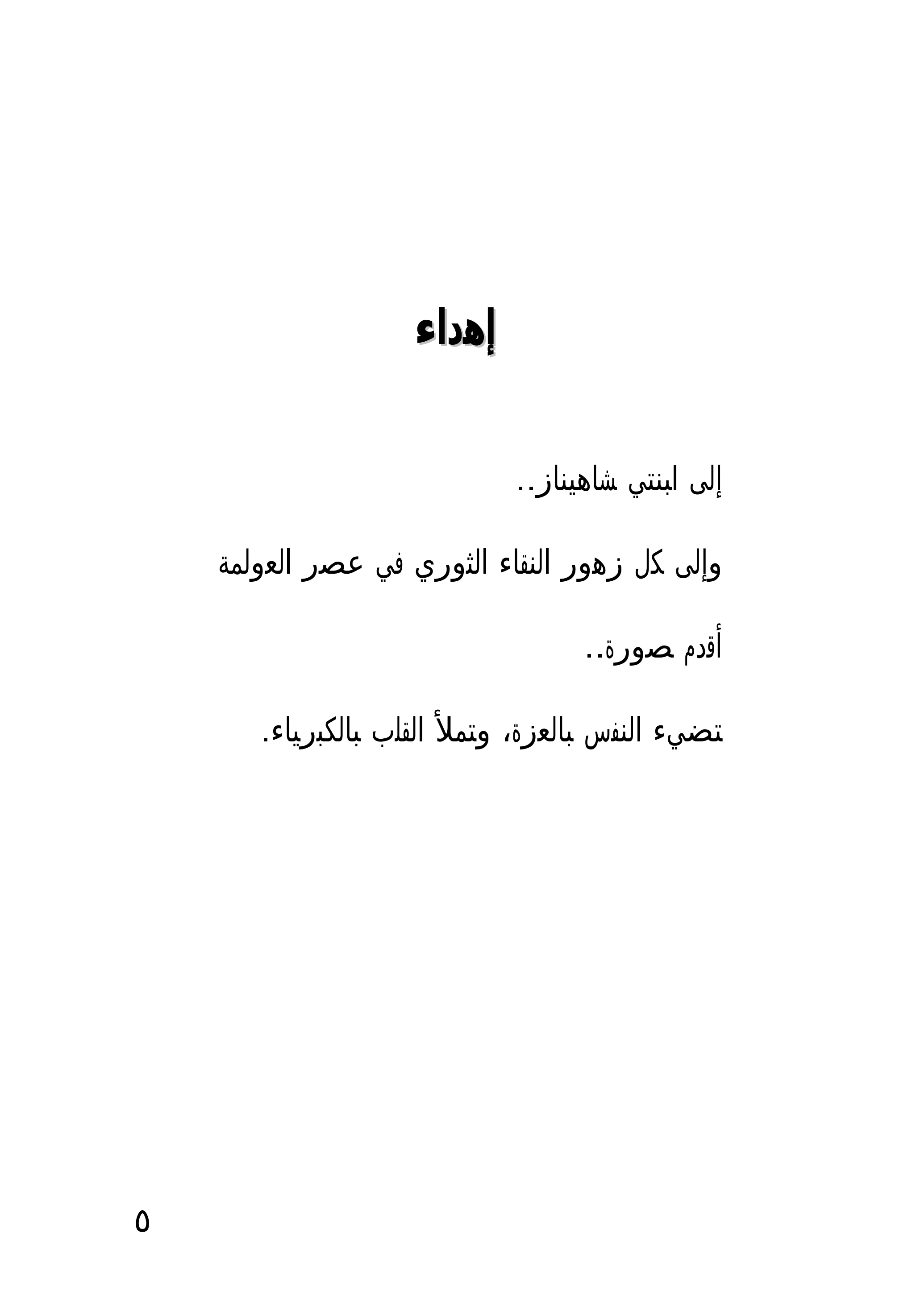


عبد الناصر في الشعر العربي الحديث

عبد الناصر
في الشعر العربي الحديث

الدكتور
عبد الله سرور





إهداء

إلى ابنتي شاهيناز..

وإلى كل زهور النقاء الثوري في عصر العولمة

أقدم صورة..

تضيء النفس بالعزة، وتملأ القلب بالكبرياء.

تقديم

لم يكن عبد الناصر في حياتنا حاكما ثم مضى كما فعل غيره. ولم يكن فاعل أحداث وصانع إنجازات فقط، لكن عبد الناصر نجح في أن يحفر لنفسه مكانًا خاصا داخل عقولنا وقلوبنا جميعا، سواء من اتفق معه أو اختلف. ومن ثم يمكن القول في اطمئنان: إن التاريخ العربي الحديث لم يعرف زعامة شغلت قلوب الجماهير وسكنت وجداناتها وحظيت بحبها مثل جمال عبد الناصر الذي قدم نموذجا فريدا لزعامة تاريخية فذة، ملأت الدنيا وشغلت الناس واختلفت حولها الآراء وستظل تختلف إلى أمد طويل.

وهذا الكتاب يعرض شتى نظرات الشعراء إلى عبد الناصر، ومختلف مواقفهم منه؛ ولذا فهو يعرض رؤية الناس لشخصية عبد الناصر في كل جوانبها العامة. فقد أفرط الشعراء في رسم ملامح وتفاصيل الشخصية الأسطورية للزعيم إلى حد بعيد يكاد يتصل بالخرافات، ويبتعد عن منطق العقل. لكن هذا التزيد والإفراط لا ينفي حقائق الواقع. وجملتها أن عبد الناصر قد أحبته الجماهير وتعلقت به على نحو أسطوري.

ولقد روى عبد الناصر بمواقفه الثورية عطش الجماهير إلى الثورة ضد كل مظاهر الكبـت والتخلـف والحرمـان، فصارت الثورة حديث الشعر. أما شخص الثائر عبد الناصر فقد غدا النموذج والمثال.

وقد اختلف مع عبد الناصر قطاع من جماهير الشـعب، ولم يكن سبب الاختلاف واحدا، بل غير واحد، وأيضا لم تقع القطيعة التي بلغت حد العداء بين الأطراف في وقت واحـد، وإن كانت قد تجسدت بشكل واضح في نهاية حكمه، وإنمـا تراكمت ألوان القطيعة والخلاف والتعبير عنها شـعرا مـع تطور الأيام وتتالي القرارات والسياسات.

وبعـد.. فهـذه دراسـة علميـة اعتصـمت بالحيـدة والموضوعية، ولم تعرف الهوى والغرض، فليس يميل بهـا حب أو بغض، وليس فيها تعصب أو شنآن، وإنمـا الحـس الوطني الصادق.

وا   من وراء القصد.

د. عبد ا   سرور

رمل الإسكندرية في ١٩٩٧/٣/١٣

مدخل

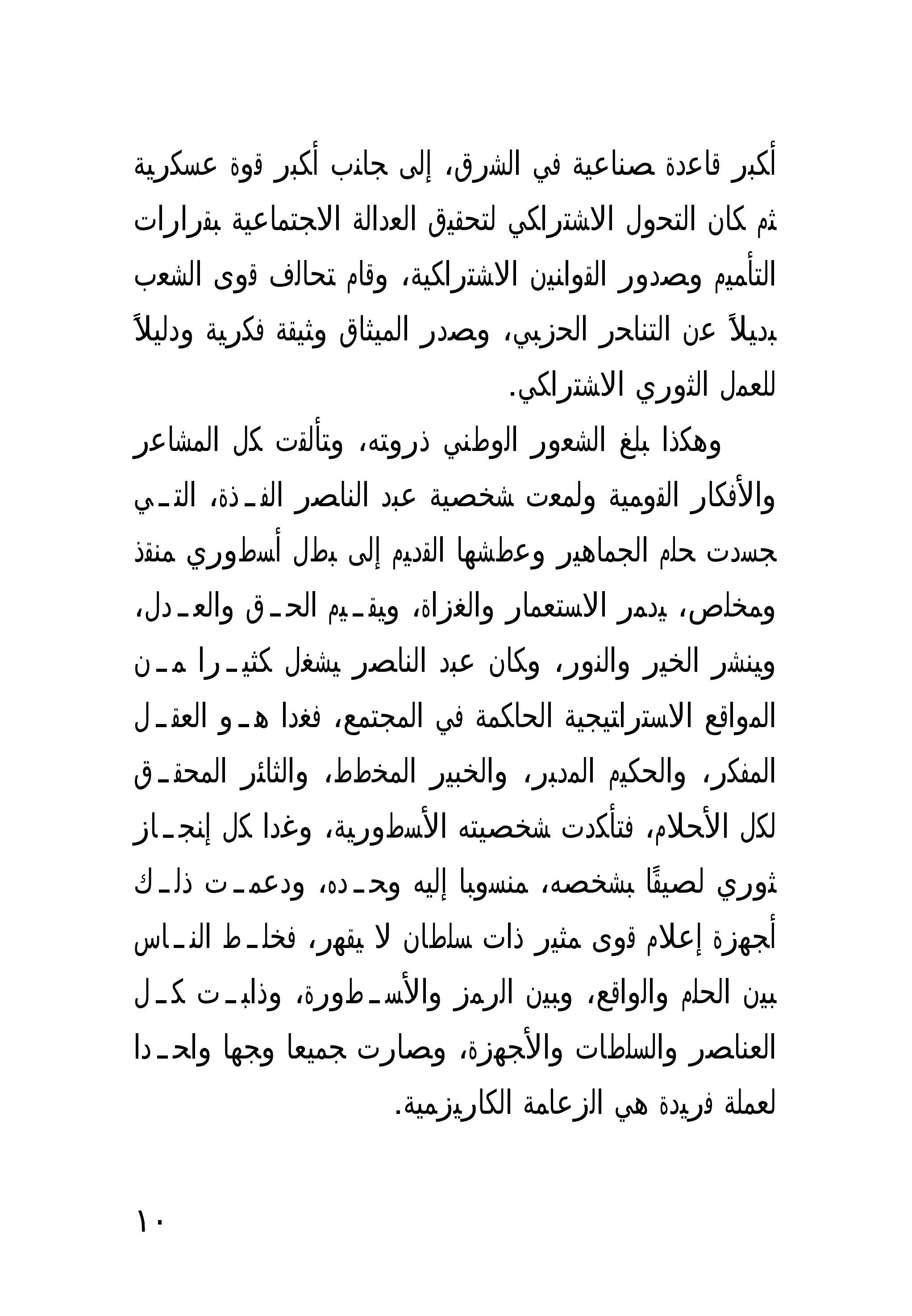
كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بداية طريق طويلة من الأمل الحلو، أحاطته زهور النضال، وراوحته نسائم الانتصارات المتعاقبة. بدأت الثورة بطرد الملك. وبعد عام كان قد تم إلغاء الألقاب، وسن قانون الإصلاح الزراعي، وإلغاء الأحزاب السياسية، والإطاحة بالملكية نهائيا. وبدأ الناس يتنفسون الصعداء وقد أزيحت عن صدورهم كوابيس الملكية والإقطاع والفساد. وبعد عام آخر تم توقيع اتفاقية الجلاء لطرد المحتل. واستجاب الناس لشعار "ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد"، وتأجج الشعور القومي، وبدأ المد الثوري في الاندفاع قويا حتى بلغ ذروته عام ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي على مصر الذي جسد المواجهة الحادة بين القوى الوطنية والتحررية الناهضة، وقوى الاستعمار العالمي.

وكانت الفترة منذ عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٧ هي فترة التحولات الكبرى في المجتمع المصري، كما أنها كانت فترة الآثار العالمية المباشرة للثورة المصرية. عالميا كانت هي فترة النضال ضد الاستعمار وأعوانه، ومساندة حركات

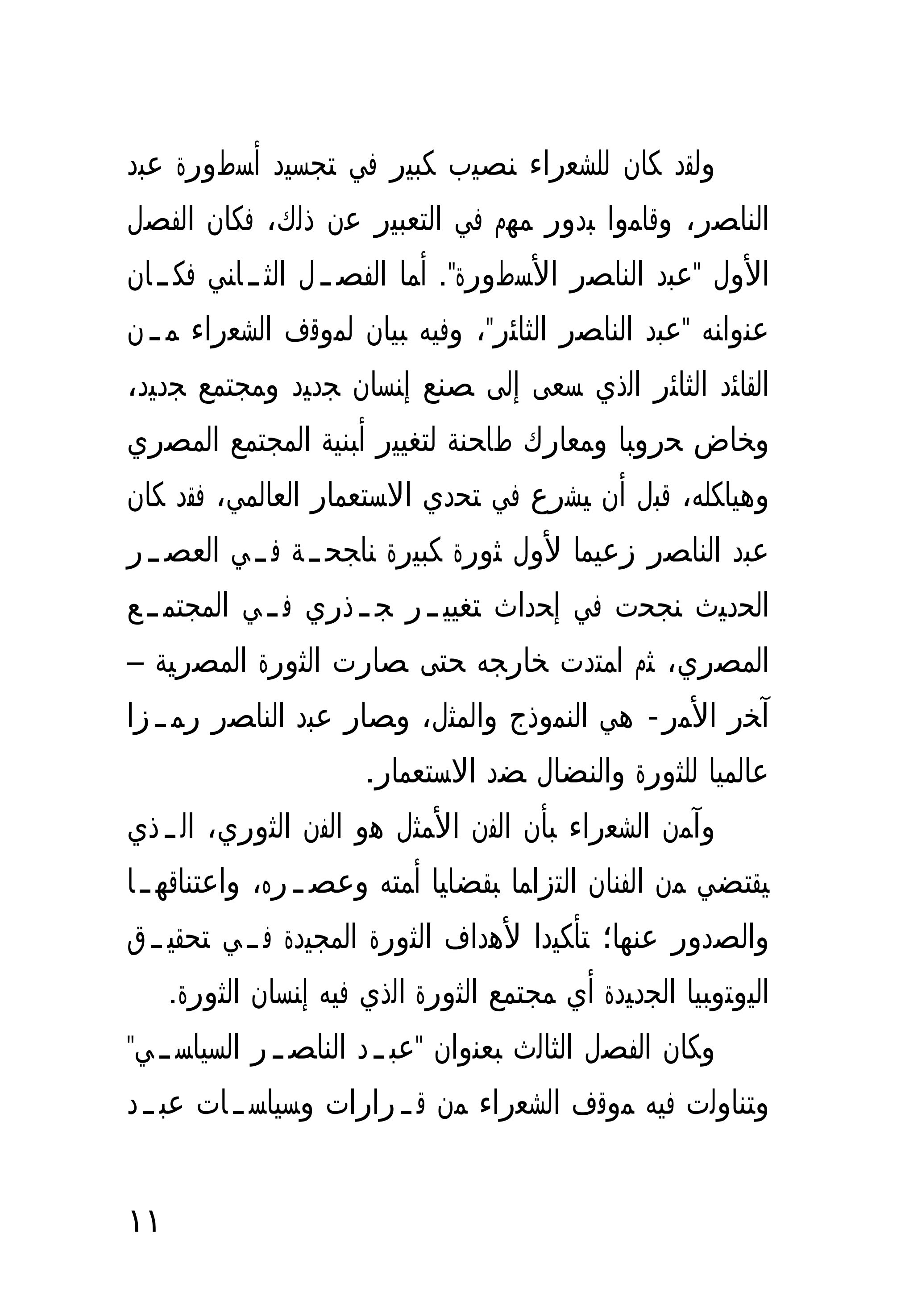
التحرر في كل مكان، والتصدي لسياسة الأحلاف العسكرية، وكل أشكال الرجعية، ومحاربة الأنظمة السياسـية العميلـة، وبناء تجمع سياسي عالمي جديد تمثـل فـي حركـة عـدم الانحياز.

وكانت النتائج باهرة، فقد تحرر كثيـر مـن الشـعوب العربية والإفريقية، وأنشئت منظمة الوحدة الإفريقية، وسقطت سياسة الأحلاف والمحاور، وتهاوت الأنظمة الرجعية، وشبت الثورات في كل مكان، وبدأ حلم الوحدة العربية يتحقق بقيـام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ واقترب فجر الوحدة الشاملة بعقد أول مؤتمر للقمة العربية عام ١٩٦٤، وراحـت قوى الثورة تصيب الاستعمار كل يوم بسهم جديـد. وصـار عبد الناصر رمزا عالميا للنضال ضد الاسـتعمار وتحريـر الشعوب المغلوبة.

أما في مصر فقد كانت فترة ٥٦-٦٧ هي زمن تعـاظم الشعور بالشخصية القومية، وترسيخ قيم العروبـة والوحـدة العربية، والنضال لتحقيق الحرية والعدالة والمساواة، ونشـر التعليم المجاني، وكسر احتكار السلاح. وكان مشروع السـد العالي تجسيدا للقدرة على التحدي والإنجاز؛ ليبدأ بعدها إنشاء


أكبر قاعدة صناعية في الشرق، إلى جانب أكبر قوة عسكرية ثم كان التحول الاشتراكي لتحقيق العدالة الاجتماعية بقرارات التأميم وصدور القوانين الاشتراكية، وقام تحالف قوى الشعب بديلاً عن التناحر الحزبي، وصدر الميثاق وثيقة فكرية ودليلاً للعمل الثوري الاشتراكي.

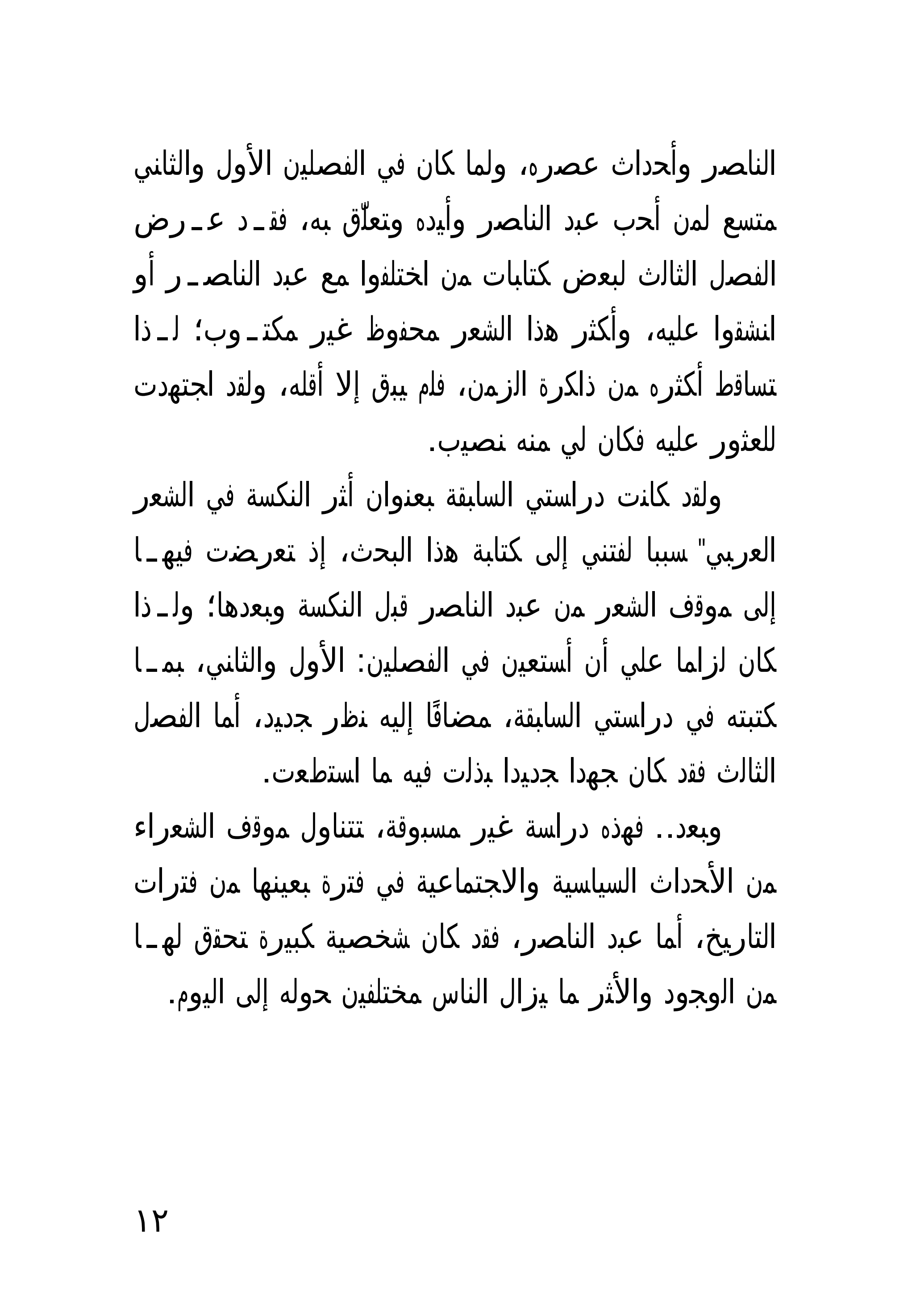
وهكذا بلغ الشعور الوطني ذروته، وتألقت كل المشاعر والأفكار القومية ولمعت شخصية عبد الناصر الفـذة، التـي جسدت حلم الجماهير وعطشها القديم إلى بطل أسطوري منقذ ومخلص، يدمر الاستعمار والغزاة، ويقـيم الحـق والعـدل، وينشر الخير والنور، وكان عبد الناصر يشغل كثيـرا مـن المواقع الاستراتيجية الحاكمة في المجتمع، فغدا هـو العقـل المفكر، والحكيم المدبر، والخبير المخطط، والثائر المحقـق لكل الأحلام، فتأكدت شخصيته الأسطورية، وغدا كل إنجـاز ثوري لصيقًا بشخصه، منسوبا إليه وحـده، ودعمـت ذلـك أجهزة إعلام قوى مثير ذات سلطان لا يقهر، فخلـط النـاس بين الحلم والواقع، وبين الرمز والأسـطورة، وذابـت كـل العناصر والسلطات والأجهزة، وصارت جميعا وجها واحـدا لعملة فريدة هي الزعامة الكاريزمية.



ولقد كان للشعراء نصيب كبير في تجسيد أسطورة عبد الناصر، وقاموا بدور مهم في التعبير عن ذلك، فكان الفصل الأول "عبد الناصر الأسطورة". أما الفصل الثاني فكان عنوانه "عبد الناصر الثائر"، وفيه بيان لموقف الشعراء من القائد الثائر الذي سعى إلى صنع إنسان جديد ومجتمع جديد، وخاض حروبا ومعارك طاحنة لتغيير أبنية المجتمع المصري وهياكله، قبل أن يشرع في تحدي الاستعمار العالمي، فقد كان عبد الناصر زعيما لأول ثورة كبيرة ناجحة في العصر الحديث نجحت في إحداث تغيير جذري في المجتمع المصري، ثم امتدت خارجه حتى صارت الثورة المصرية – آخر الأمر- هي النموذج والمثل، وصار عبد الناصر رمزا عالميا للثورة والنضال ضد الاستعمار.

وآمن الشعراء بأن الفن الأمثل هو الفن الثوري، الذي يقتضي من الفنان التزاما بقضايا أمته وعصره، واعتناقها والصدور عنها؛ تأكيدا لأهداف الثورة المجيدة في تحقيق اليوتوبيا الجديدة أي مجتمع الثورة الذي فيه إنسان الثورة.

وكان الفصل الثالث بعنوان "عبد الناصر السياسي" وتناولت فيه موقف الشعراء من قرارات وسياسات عبد


الناصر وأحداث عصره، ولما كان في الفصلين الأول والثاني متسع لمن أحب عبد الناصر وأيده وتعلّق به، فقـد عـرض الفصل الثالث لبعض كتابات من اختلفوا مع عبد الناصـر أو انشقوا عليه، وأكثر هذا الشعر محفوظ غير مكتـوب؛ لـذا تساقط أكثره من ذاكرة الزمن، فلم يبق إلا أقله، ولقد اجتهدت للعثور عليه فكان لي منه نصيب.

ولقد كانت دراستي السابقة بعنوان أثر النكسة في الشعر العربي" سببا لفتني إلى كتابة هذا البحث، إذ تعرضت فيهـا إلى موقف الشعر من عبد الناصر قبل النكسة وبعدها؛ ولـذا كان لزاما علي أن أستعين في الفصلين: الأول والثاني، بمـا كتبته في دراستي السابقة، مضافًا إليه نظر جديد، أما الفصل الثالث فقد كان جهدا جديدا بذلت فيه ما استطعت.

وبعد.. فهذه دراسة غير مسبوقة، تتناول موقف الشعراء من الأحداث السياسية والاجتماعية في فترة بعينها من فترات التاريخ، أما عبد الناصر، فقد كان شخصية كبيرة تحقق لهـا من الوجود والأثر ما يزال الناس مختلفين حوله إلى اليوم.

الفصل الأول
عبد الناصر الأسطورة

كان عبد الناصر شخصية فـذة، وبطـلاً شـعبيا بكـل المقاييس، أحبه الناس وعشقوه، فقد بعث لهم صور البطولـة العربية من طيات التاريخ إلى الحياة من جديد. كان واحـدا من أبناء الطبقة الوسطى التي ارتبطت بـه كـل الارتبـاط، وانحاز إلى العمال والفلاحين والفقراء والمطحونين، فالتهبت مشاعرهم له تأييدا وعرفانًا، وقد فـتح لهـم كـل الأبـواب الموصدة، وأزاح من طريقهم كل الحواجز والعوائق، وأزال أمام أعينهم ما كانوا يظنونه لا يزول، فأطاح بقوى وبكيانات سياسية طالما جثمت على صدورهم، ورفع أمامهم شـعارات الحق والعدل والحرية والمساواة، ومنحهم حقوقًا كانت تلـوح لهم خيالاً بعيد المنال، وبشرهم بكل معاني القوة والعظمـة، واستنفر فيهم المثل العليا والقيم النبيلة.

وخاض عبد الناصر، ومعه الأمة كلهـا، عديـدا مـن المعارك، حقق فيها انتصـارات متواليـة ألهبـت الشـعور الوطني، وحفظت له اندفاعة لا تعرف الفتور.

ودار الشعر العربي في هذا الفلك الدوار حول صـفات البطل وصورته المثلى، كما وجدها الشعراء فـي زعـيمهم جمال عبد الناصر، وتغنوا طويلاً بشخصه وقيمـه وأفكـاره

وسياساته ومعاركه وانتصاراته وإنجازاته. وأفاضوا في ذلك إلى حد بعيد حقق لنا اتجاها متميزا في الشعر العربي يمكـن أن نسميه: الاتجاه الناصري، بحيث إن مثـالاً واحـدا مثـل ديوان "وفاء" للشاعرة السورية عفيفـة الحصـني يمكـن أن ينهض دليلاً قويا على وجود هذا الاتجاه وصـحته وقوتـه، فالزعيم:

كَسـر القَيـد وأصـنام الجمـود

قَهـر الخصـم بحـزم وصـمود

وبنَى بالحـب صـرحا للخلُـود

في رياض العرب في مهدِ الجدود(١)

إنه محطم القيود، وفاتح باب الحرية أمام الشعب، وهـو محطم أصنام الجمود بدعوته إلى الانطلاق والبنـاء والقـوة والمجد والعظمة، وهو قادر بحزمه وصـموده علـى قهـر الخصوم الذين يخطئون؛ إذ يتوهمون القدرة علـى تحقيـق الغلبة عليه. وهو رافع لواء الحب، على الرغم مـن قوتـه وعزمه وصموده، وبذا يبني صرحا جديدا شامخًا يضارع به أمجاد أجدادنا الذين تشهد الدنيا بفضلهم.

وهكذا اجتمعت في الزعيم عديد من الصفات المثال، فغدا كاسر القيد ومحطم الأصنام والقاهر، والحازم، والصامد، والباني، والمحب. لقد تحول الزعيم إلى أسطورة أثراها خيال المحبين والمنبهرين بما قاله الزعيم أو حققه، وغذتها خيالات المحبطين والزاحفين على أرض الواقع الأليم.

إنه قادر على أن يهز كيانات كبرى في الغرب بغضبة واحدة من غضبات:

هزت كيان الغَرب غَضبةُ ناصر
أَردى قُلوبهم بعزم لا يلين[2]

بل إنه حين يصمد في وجه العدوان تتصدع الدول الباغية فرقًا وإشفاقًا، كما أن صمود الزعيم غدا الضمان الأكيد لثبات التاريخ واستمراره، فلا أقل من أن يتوجه الشعب إليه بالتحية الخالدة.

وصمدتَ يا أملَ العروبة لم تَلِن	**فَتَصدعتْ دول الغُزاة المارقين**
لولا صمودك يا جمال بقُوة	**لتقهقر التَاريخ آلافَ السنين**
فإليك منا يا جمالُ تحيةٌ	**ما خَلّد التاريخُ ذكْر العالمين**[3]

ورسمت قصائد الشعراء صورة الزعيم علـى هـذا النحـو الأسطوري المعجز، وأنه الرحمة التي تسع الـدنيا جميعـا، وشهاب القوة الذي تعنو له رقاب الأعادي فتصعق أكبادهم:

رحمةٌ في السـلم يحنُـو ظلهـا — تَسـع الّـدنْيا بحلـم عجـب
وشهاب في الـوغى تعنـو لـه — مرعـدات للـدخيل الصـخب
إن تـروه غاضـبا مستبسـلاً — أو تروه فـي جـلال النـوب
صـعقت أكبـادكم لاهثـة — وتوارت في صعيد الهـرب[٤]

ووصف الشعراء الزعيم بأنه أشعل نور الهداية المقتبس من نور النبي العربي ﷺ فالزعيم منطلق من تـراث عظـيم تقدسه الجماهير:

ناصر أشـعل نبراسـا لنـا — من هدى نور النبي العربي[٥]

وصورت القصائد الزعيم على أنه يصنع كل شيء ماجد أو مثالي، وما يصنعه كافٍ لتحقيق أمـاني الشـعب، ودور الجماهير أن توجه له التحية، وتفتديه بـالأرواح والأمـوال، وتبايعه بالقلوب والعقول.

إن نحيـي ناصـرا وشـعارنا — أن نفتديـه بروحنـا وبمالنـا
أجمالنا مـلأت مـآثرك الـدني — فاعذر إذا لم تحصـها أقلامنـا
يا من حملت وأنت تبسم عبئنـا — هل ينقد الثمن الخطير وفاؤنـا

يا من دعوت إلى العظائم والعلا ورفعت بالمجد الأثيل بناءنا
قد بايعتك قلوبنا وعقولنا وبنور هديك تأتسي أفعالنا[٦]

وهكذا فإن الزعيم يصنع كل شيء، ونحن نرفع شعار الفداء له، فمآثره ملأت الدنيا إلى حد العجز عن إحصائها، وقد حمل عنّا كل الأعباء وهو يبسم راضيا ومستهزئًا بالأنواء والمصاعب، ودعا إلى العظائم والعلا، ورفع بناء المجد؛ ولذا بايعته القلوب حبا والعقول رضا، وحين تقع المصائب وتنزل الخطوب يجأر الشعب بالهتاف مستغيثًا بناصر ليرد عنّا الأهوال ويرفع عنا الخطب، فهو لا يعرف الوهن.

فالشعب يهتفُ مستغيثًا ناصرا يا أيها البطلُ العظيم الثائر
إنا على عهدِ الوفاء لوحدة كُنّا بها بين الأنَامِ نُفَاخِر
ومضى بنا ربانُها ببسالة يعلُو جبالَ الموج وهو مثابر
لا يعتريه الوهن مهما أحدقت بالركب أهوال وبحر هادر[٧]

وفضلت الوحدة المصرية السورية، وانفصمت عرى الجمهورية العربية المتحدة، وتبدد الأمل الحلو في عودة الوحدة العربية إلى الوجود، إلا أن الشعب ظل وفيا لتلك الوحدة التي لا يحققها غير ناصر، فهو ربان السفينة الباسل، يملك الصبر ولا يعتريه الوهن على الرغم من كل الأهوال

العواتي، وهو الزعيم العبقري المؤمن المنصـور مـن ا ، العادل، باني المجد، بل هو الشمعة التي تحترق كي تنير لنـا الطريق:

ومضى يشُق الموج فُلْك جمالنا	**يرعاه في اليم العزيـز القـادِر**
يرعى زعيما عبقَريـا مؤمِنًـا	**بالحق يعلِـي شَـأْنَه وينَاصِـر**
بطَلٌ دعانـا أن نُشـيد مجـدنا	**بِمحبـةٍ وبقـوة تتضـافر**
بطَـلٌ تَعهـد أن يقِـر عدالـة	**مهما يحـاولُ طَعنَـه المُتـآمِر**
صهر الفُؤاد لكي ينيـر سـبِيلَنا	**وكذاك الشمع المُضيء الساهِر**
شَحذ العزائم كَي يشق طَرِيقَنـا	**ويعد جـيلاً للسـماء يبـادر[٨]**

وما دام الزعيم يصنع لنا كل شيء فهـو زعـيم غيـر عادي، وكل ما يتصل به، أيضا غير عادي. إنه فوق مستوى البشر، عزيز المثال، نادر النظير؛ لذا يقسـم النـاس بـا وبجمال وبالإسلام وبالقرآن أن يظلوا مخلصين له طائعين:

قَسما بِربك يا جمـال وبـالعلم	**قَسما باسمك بالعروبـة بـالقلم**
قسـما بإسـلامٍ أديـن بهديـه	**قسـما بقـرآن تَنَـزلَ بـالكلم**
إنّي لأُخلِص ما حييـتُ لناصـر	**ولموطِني العربي تَبنيه الهمم[٩]**

لذا يجب الحفاظ على الزعيم من كل ما يمكن أن يسوءه، حتى أهون الأشياء، فقد يعكر طنين بعوضة رؤياه وراحة نومه، فليذهب البعوض إلى الجحيم:

وإنّي لأعلي ناصرا أن يمسه غُبار إذا ثارتْ زوابع خَصمِه
ولكنَني أخْشى طنين بعوضة تُعكّر رؤياه وراحةَ نومه[١٠]

لقد تعلقت أنظار الناس بجمال عبد الناصر، فكالوا له كل أوصاف العظمة والبطولة والعدل والكمال، ولم يدعوا من الصفات الحسنة شيئًا لم يلصقوه به، وأصبح الحديث عنه وحده صورة للمثال والكمال، فقد كان شخصه وحده كافيا لنكون جميعا الأكمل والأعظم. وفي وسط هذا التركيب الأسطوري والزخم العاطفي والإعلامي المثير، لم يعد أحد يتحدث عن الشعب وقدراته وإنجازاته أو طموحه وآماله أو حتى آلامه، فكل شيء ملتصق بالزعيم وهو الموكل إليه تصاريف الأمور، فهو الذي يفكر لنا، وينجز لنا ويجاهد، ويخوض المعارك، ويأتينا بالثمرات آخر الأمر، وكأن الأمر لا يعنينا، وكانت تلك فاتحة السلبية والخمول، فما دامت كل الخيوط بيد الزعيم وحده، وما دام الأمر موكولاً إليه بدءا من التفكير إلى حصاد الثمار، فلا دور للشعب في الفعل والتحقيق

والجهاد والانتصار، بل يقتصر دوره على التأييد والمبايعـة والتصفيق والتهليل.

ولم يجد الشعراء حرجا في التعبير عن هـذه الحقيقـة، وكأنها مفخرة وليست منقصة، فهذا عبد المـنعم الأنصـاري يعلنها في وضوح وكأنها مزية للتفاخر:

عودتَنـا ألا نُفَكِّـر حينًـا	**في الأمر.. حتى كاد لا يعنينـا**
وحملْتَ أعباء الحيـاةَ جميعهـا	**عنا.. وسِرتَ بها كما يرضـينا**
وسـألْتَ أعطينـاك دون تَـرددٍ	**أغلَى الذي قد كان فـي أيـدينا**
فَزرعتَه في تُربـة.. معطـاءةٍ	**ونَما نَماء الحب في وادينا(١١)**

فالشاعر يمدح الزعيم بأنه قد عودنا ألا نفكر، ويشـفق عليه لأنه حمل أعباء الحياة جميعها عنا، وأننا أسلمنا إليه قياد كل شيء في ثقة وراحة نفس، وهو لا يعرض الأمر غاضبا أو مستنكرا، بل يعرضه باشا متباهيا. وهكذا غـدا الـزعيم الأسطورة يصنع كل شيء، إنه يحلم وينجز لنا. ونحن فقـط نسبح بحمده ونمجد له.. يقول الشاعر:

أمةُ العرب تُبـاهي بجمـال

نَاصِر حققَ أحـلام الخيـال

باعثُ المجدِ وعملاقُ النضال

رائد العدل ونبراس الكمال(١٢)

نحن نباهي بجمال عبد الناصر؛ لأنـه حقـق الأحـلام البعيدة، وبعث المجد، وقاد النضال، وراد العدل، وقدم صورة الكمال.. إنه يصنع كل شيء ونحن فقط نباهي، وليس عليـه إلا أن يأمر فنلبيه جميعا في طاعة لا تعرف المروق:

إنا جنودك يـا جمـال بشـيبنا — وشبابنا يا قائد العرب الأمـين
إنا جنودك يـا جمـالُ بِوِلـدِنَا — ونسائنا فأمر تِجِـدنَا طـائعين
لبيـك هـذا عهـدنا ويمينُنـا — لا نحنثُ الأيمان لسنا قانطين(١٣)

لقد صار جمال معشوقًا يتغزل فيه الشـعراء ويلحـون على أن يلصقوا به كل وصف جميل أو عظيم، وربطوا بين شخصه وسلطاته وإنجازاته دون فصل أو تمييز، فجمال هو الثورة، وهو السد العالي، وهو الدعوة إلى السلام، أنه البطل الأسطوري يقفز من رحم الخيال إلى أرض الواقع، فالتصقت به كل صفات المثل الأعلى كما التصقت به كـل إنجـازات المرحلة:

وجمال هل علمتم من جمـال — زعيمـا للنضـال العربـي
هـل عـرفتم معـدنًا متقـدا — صـاغه ا بصـافي الـذهب
هل رأيتهم هيبة العمـلاق إذ — يترامـى خصـمه عـن كثـب

هل شهدتهم قائـدا ملتزمـا **خلقه القـرآن نـهـج الأدب**

هل علمتم ثـائرا فـي أمـة **يحطم الأصـنام حطـم العطـب**

هل عـرفتم بانيـا، ميثاقـه **يضـع العـدل بـديل الحجـب**

سده الجبـار سـفر جـامع **حول التـاريخ رغـم النصـب**

في دماكم أثـر مـن عزمـه **قد عـرفتم جِـره فـي الغلـب**

وجرعتم غُصصا من حزمـه **في دوي مـن عظـيم الخطـب**

رحمة في السلم يحنو ظلهـا **تَسع الدنيا بحلـم عجـب(١٤)**

لقد صوره الشعراء على أنه يملك قدرة عاتية على فعل المستحيل، حتى كاد أن يكون قادرا على البعـث والنشـور، وأن يأتي لمصر بخلق جديد هم جيل الثـورة، وقـد بعـث الرعب في قلب القدر، فكأن جمالاً إله قدير يقول للشيء كن فيكون.. يقول حلمي مرزوق:

كـأن جمـالا إلـه قـدير

إذا قال للشيء كُـن فيكـون

....

ويأتي لمصر بخَلْـق جديـد

جمالٌ زعـيم أجـد الحيـاة

وحطم في الشرق وهم العبيد

دعـــــاةَ الضـــــلال

دعـــــاةَ الخَـــــور

دعاة الهزيمة بـين الرجـال

وحرك في الرعب كَف القدر

ليمحو ما رقـشَ الأدعيـاء

ويثْبتَ ما يصـنَع الكبريـاء

ويكتُـب تاريخَنَـا بالـدم

ويعلُو على الواقـع المـؤْلم

ويمنَع أن يسترد الظلام(١٥)

وهكذا غدا الاتجاه الناصري الأسطوري اتجاها شـعريا أصيلاً متميزا، ارتبط بشخص الزعيم وأفعالـه ودار حولـه، ووصف شكله وأخلاقه وشمائله، ومجـده إلـى حـد يشـبه

التقديس، وربط بشخصه كل قضايا المرحلة وموضـوعاتها وإنجازاتها، لم يعد ثمة فارق بين شخص الـزعيم ومنصـبه الرسمي وسياسة الدولة والمواقف والقضايا المختلفة، بل كلها جمال، حتى إن شاعرا تقليديا مثل الأستاذ علي الجندي يوقف عليه جل شعره في هذه الفترة، فيصف الرئيس بأنه يحمل هم العرب جميعا حتى شابت رأسه، والحاكم العـادل، والفتـى الصعيدي الأبي، وخليفة صلاح الدين، والصـادق القـوي، تنطق أعماله بعظمته، وباتت له جولدا مائير أمة ذليلة، أمـا بن جوريون فقد صار وطاء لنعليه، وقد جاء به ا لتجديـد بناء الأمة وبعثها من جديد، يقول الشاعر مادحا الزعيم:

حاملاً هم بني العرب من دان ونـاء

جاهد في حكمه العادل والحكم شـقاء

تبعات شَيبتْ فَوديهِ شـأن الحكمـاء

ولبعض الشيبِ نُور ووقَـار وبهـاء

الفَتَى (المُري) بأسـا و (الصـعيدي)

إبـــــــــــــــــــاء

و (الصلاحي) اعتزاما حين يحمر العداء

والذي يصدع بالصدق ويـأبى الافتـراء

والذي ينطق بالفَصل إذا اشْـتَد المِـراء

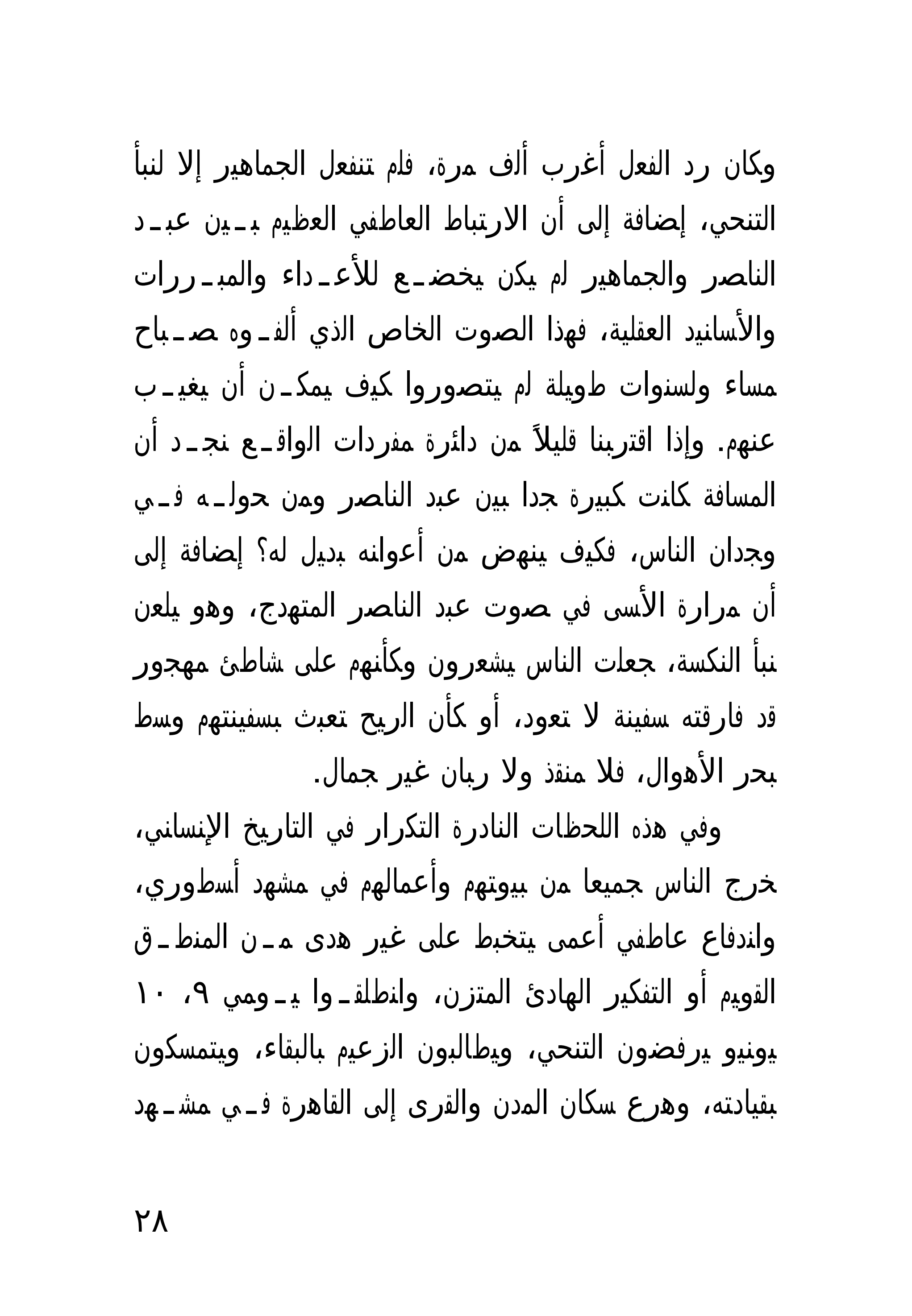
والذي يطلع كالصبح إذا استشرى العماء
والذي بالرأي عنه في الدياجي يستضاء
والذي أعماله تُغْنِيه عـن كُـل ادعـاء
والذي شَاد لنا السد لنحظَـى بالرخـاء
والذي يمضِي أماما ليس يدري ما وراء
والذي يهجم كالضيغَم من حيـثُ يشـاء
والذي كان لصهيون من الحمـق دواء
والذي باتَتْ له (مايير) من بعض الإماء
والذي رأس (بن جوريون) لنَعلَيهِ وطاء
والذي جاء به ا ُ لتجديدِ البنـاء(١٦)

لقد بلغ الأمر حدا غريبا نتيجة كل تلك الصـفات غيـر العادية التي سعى الشاعر كي يلصقها بالزعيم، بـل إن فـي كثير منها مجافاة الحقائق الواقع ومنطق العقل القويم، بحيث صار من حقنا أن نتسائل –الآن- عن مدى مسئولية الكتـاب والشعراء عن النكسة؟ أليس من الخطأ الجسيم أن نتحدث فقط عن مسئولية القادة السياسيين والعسكريين عن نكبة الـبلاد، ولا نتحدث عن مسئولياتنا –فئات وجماعات- عما بلغه القادة من درك، وما انجرفوا إليه من هوة؟

لقد أفرط الشعراء في رسم ملامح وتفاصيل الشخصـية الأسطورية للزعيم إلى حد بعيد يكاد يتصل بالخرافات ويبتعد عن منطق العقل. لكن هذا التزيد والإفراط لا ينفـي حقـائق الواقع وجملتها أن عبد الناصر قد أحبته الجماهير وتعلقت به على نحو أسطوري.

وأغلب الظن إن ملامح الشخصـية الأسـطورية كمـا رسمها الشعراء لعبد الناصر كانت ملامح مستمدة من التراث الشعبي، فالبطل في سيرتنا الشعبية لابد أن تحيطه الخوارق، وتحاصره الأهوال ويخترق الصعاب ويقهـر المسـتحيلات، ويعيد للجماعة حقها الضائع والسليب، وينازل أعداء أشـداء تشتهر قوتهم، ويلمع بأسهم. كما أنه بطل راجح العقل، عادل، صانع للخير، يلتف حوله الناس في إكبار وإجلال، ويحبونـه إلى حد التضحية من أجله بكل غال، والدفاع عنه بكل سبيل. وهذه كلها صفات حرص الشعراء على إسباغها على الزعيم فلا عجب أن نقول: إنهم وصفوا عبد الناصر الأسطورة.

وحين وقعت النكسة، وخرج عبد الناصر على النـاس يعلن النبأ الحزين، وأنه يتحمل المسئولية عن كل ما جـرى، ويعلن تنحيه عن تحمل مسئولية الحكم، كان الموقف غريبـا،



وكان رد الفعل أغرب ألف مرة، فلم تنفعل الجماهير إلا لنبأ التنحي، إضافة إلى أن الارتباط العاطفي العظيم بـين عبـد الناصر والجماهير لم يكن يخضـع للأعـداء والمبـررات والأسانيد العقلية، فهذا الصوت الخاص الذي ألفـوه صـباح مساء ولسنوات طويلة لم يتصوروا كيف يمكـن أن يغيـب عنهم. وإذا اقتربنا قليلاً من دائرة مفردات الواقـع نجـد أن المسافة كانت كبيرة جدا بين عبد الناصر ومن حولـه فـي وجدان الناس، فكيف ينهض من أعوانه بديل له؟ إضافة إلى أن مرارة الأسى في صوت عبد الناصر المتهدج، وهو يلعن نبأ النكسة، جعلت الناس يشعرون وكأنهم على شاطئ مهجور قد فارقته سفينة لا تعود، أو كأن الريح تعبث بسفينتهم وسط بحر الأهوال، فلا منقذ ولا ربان غير جمال.

وفي هذه اللحظات النادرة التكرار في التاريخ الإنساني، خرج الناس جميعا من بيوتهم وأعمالهم في مشهد أسطوري، واندفاع عاطفي أعمى يتخبط على غير هدى مـن المنطـق القويم أو التفكير الهادئ المتزن، وانطلقـوا يـومي ٩، ١٠ يونيو يرفضون التنحي، ويطالبون الزعيم بالبقاء، ويتمسكون بقيادته، وهرع سكان المدن والقرى إلى القاهرة فـي مشـهد

عاطفي مهيب، يهتفون للـزعيم، وينـامون فـي الشـوارع وينتحبون ويهذون، واستجاب الزعيم وبشر الجماهير بطريق المستقبل معلنًا: "إن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة".

وهكذا فإن التلاحق الدراماتيكي للأحداث، كان انـدفاعا أسطوريا غير مألوف أو متوقع، كما كان عاطفيا نادرا وغير عقلي، لم يتحد لأحد فرصة للتقويم أو المراجعة، ومـن ثـم كانت مواقف الجماهير وردود أفعالها لما وقع فـي سـاحات القتال، متأخرة بعض الشيء.

وخلاصة القول: إن الجمـاهير فـي غمـرة انـدفاعها العاطفي المهيب، لم يكن الشعراء في غيبة عنها، بل كـانوا في بؤرة الانفعال اللامع، ومع أول خروج الجماهير يـوم ٩ يونيو غنّى صالح جودت يطالب الزعيم بالبقـاء، والرجـوع عن قرار التنحي، فهو الأمل الباقي لغد الشعب، بل إنه بعـد إعلان النكسة بساعات قليلة يقول: إننا جففنا دمـع الهزيمـة وتبسمنا، ولم يبق أمامنا إلا أن ينهض الزعيم ليـدفعنا بعـد النكسة ويرفع هامتنا:

قُم واسمعها مِن أعمـاقي فأنَـــــا الشـــــعب
ابقَ فأنـتِ السـد الـواقي لمنـــــى الشـــــعب
ابقَ فأنـتَ الأمـلُ البـاقي لِغَـــــدِ الشـــــعب

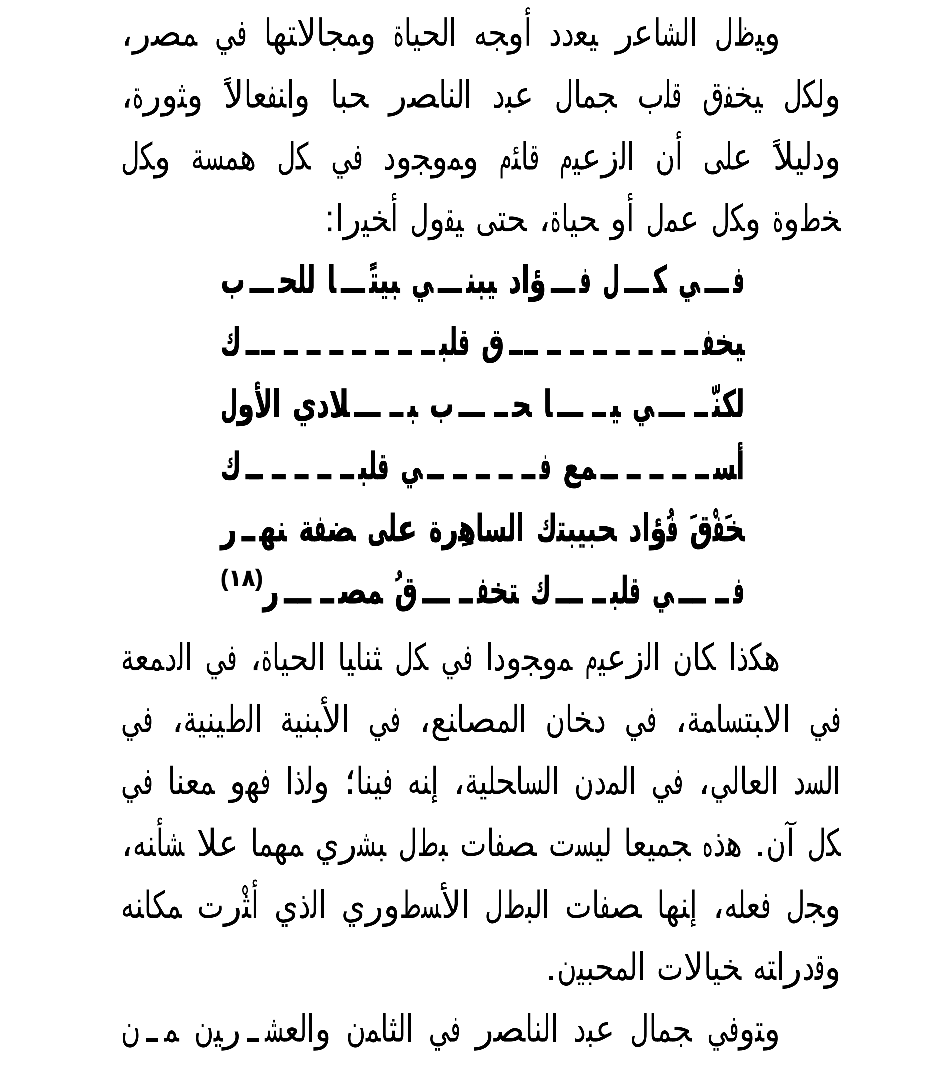
أنتَ الخيـر وأنـتَ النـور
أنت الصبر على المقْـدور
أنْتَ الناصِـر والمنصـور
ابق فأنتَ حبيـب الشـعب **دم للشـــــــــــــــعب**
قـم إنَـا جففْنَـا الـدمعا **وتبســـــــــــــــمنا**
قُـم إنـا أرهفْنَـا السـمعا **وتعلمنــــــــــــــــا**
قُـم إنـا وحـدنا الجمعـا **وتقـــــــــــــــدمنَا**
قُم للشـعبِ وبِـدد يأسـه
واذْكُر غَده واطْرح أمسـه
قُم وادفَعنَـا بعـد النكْسـة
وارفَع هامةَ هـذا الشّـعب **دم للشـــــــــــــعب(١٧)**

وتتالت قصائد الشعراء على الوتيرة التي كانت سائدة قبل النكسة، تمدح الزعيم وتمجده وتبارك أعماله وسياساته، أو تصف حركاته وسكناته، أو تتغزل فيه وتصف ملامحه وعينيه وقامته ومِشيته.

ووصفه الشعراء بأنه صاحب القلب الكبير الذي يخفق لكل ما يجري على أرض مصر في أحجار السد وفي مدن الدلتا، وفي ثياب الريفي المجهد، وكتب الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة "أغنية إلى عبد الناصر" يقول فيها:

يـــــا حـــــــب بـــــلادي الأول
تَبـــــــــــــدأ رحلَتهـــــــــــا
بـــين خمائـــل هـــذا الحـــب الأجيـــال
فـــــــي مصـــــــــر العليـــــــا
يخفـــــــــــــق قلبـــــــــــــك
فـــــي الأغنيـــــة الصـــــخْرية
فـــوقَ جـــواد منْـــدفع أبـــيض

فـــــــي أحجـــــــار الســـــــد
يخفـــــــــــــق قلبـــــــــــــك
فـــــــي مـــــــدن الـــــــدلتا
فـــــــي الأبنيـــــة الطينيـــــة
فـــــي المدخنـــــة المرتفعـــــة
تشـــــــــتعل حماســـــــــــا
يخفـــــــــــــقُ قلبـــــــــــــك
تحـــت ثيـــاب الريفـــي المُجهـــد
يعـــــــرفُ سِـــــــر العـــــــالم
فـــــــي بضـــــــعة أغْنَـــــــام



ويظل الشاعر يعدد أوجه الحياة ومجالاتها في مصر، ولكل يخفق قلب جمال عبد الناصر حبا وانفعالاً وثورة، ودليلاً على أن الزعيم قائم وموجود في كل همسة وكل خطوة وكل عمل أو حياة، حتى يقول أخيرا:

فـــي كـــل فـــؤاد يبنـــي بيتًـــا للحـــب

يخفـــــــــــــق قلبـــــــــــك

لكنّـــي يـــا حـــب بـــلادي الأول

أســـــمع فـــــي قلبـــــك

خَفْقَ فُؤاد حبيبتك الساهرة على ضفة نهـر

فـــي قلبـــك تخفـــقُ مصـــر[١٨]

هكذا كان الزعيم موجودا في كل ثنايا الحياة، في الدمعة في الابتسامة، في دخان المصانع، في الأبنية الطينية، في السد العالي، في المدن الساحلية، إنه فينا؛ ولذا فهو معنا في كل آن. هذه جميعا ليست صفات بطل بشري مهما علا شأنه، وجل فعله، إنها صفات البطل الأسطوري الذي أثْرت مكانه وقدراته خيالات المحبين.

وتوفي جمال عبد الناصر في الثامن والعشـرين مـن سبتمبر عام ١٩٧٠م، في واحدة من أنبل معاركـه لتوحيـد

الصف العربي، ووقف مذابح أيلول الأسود ضد الفلسطينيين في الأردن، ومن أجل حشد القُوى جميعا ضد العدو المعتدي، بدلاً من توجيه السلاح العربي إلى صدور الأشـقاء. وكـان موته مفاجأة مذهلة للجماهير التي أحبته وتعلقت به وعلقـت عليه الآمال، فقد كان يمارس عمله إلى آخر لحظة من حياته. وكان موته مفاجأة؛ لأنه وقع فـي زمـان استشـعرت فيـه الجماهير قرب موقعة الثأر من العدو المحتل، ورد الكرامـة السليبة. وكان موته بعد ثلاث سنوات من الكد والجِد قضاها الزعيم في رأبِ الصدع وتوحيد الكلمة، وإعادة بناء الجبهـة الداخلية، وحشد كل الطاقات للمعركة التي جهز لهـا جيشًـا قويا قادرا. وإضافة إلى أن عبد الناصر كان بطلاً أسـطوريا في أنظار الجماهير ووجداناتها لطول حكمه، وكثرة معاركه، وانتصاراته وتعدد إنجازاته، إلا أن الجماهير ظَلّت تتعلق بـه على نحو خاص جدا في السنوات الأخيرة لحكمه؛ لكونه رمز الصمود وأمل النصر، ولكل تلك الأسباب كانت وفـاة عبـد الناصر صدمة شعورية هائلة للوجدان العربـي المصـدوع، والمشاعر العربية المنكسرة أصلاً بسبب الهزيمة.

وفوق ذلك كان موته تهديدا مباشـرا بانحسـار المـد الثوري، ويثير القلق حول موقف الصـمود وإزالـة آثـار العدوان، وأيضا فإن موته كان يضع المكاسب الثوريـة فـي موضع التنازع، إضافة إلى أن رحيله كان يقذف بأمل الوحدة في مهب الريح. كان ألم الفجيعة عاما، ومـرارة الإحسـاس بالفقد والخسارة عظيمة، فلا عجب أن تفَطرت النفوس فـي بكاء منْهَمِر، وتراوح الناس بين الدمع والعويل ونَدبٍ الحـظ العاثِر، والإحساس بالضياع والخوف مـن الآتـي القريـب، وأيضا الإحساس باليتم والضعف.

وكتب الشاعر السوداني أبو آمنة حامد ديوانًـا كـاملاً أسماه "ناصريون.. نعم" يبكي فيه الزعيم ويقول في مقدمته: "هذا ليس رثاء لعبد الناصر، وليست فيه كلمة رثاء واحـدة، فالذي يرثى يموت، وعبد الناصر يحيا". ولم يكتف الشـاعر في ديوانه بتعداد مناقب الزعيم ومآثره وصـفاته، والحـديث عنه وإليه، ولكنه ذهب إلى الحديث الباكي إلـى بيـت عبـد الناصر، مثل قصيدته "آه.. يا منشية البكري" وهي المنطقـة التي كان يقع فيها بيت الزعيم، يقول في مطلعها:

آه.. يا منْشِيةَ البكـري.. أنـا مثل شعبي.. ضائع الخطو.. يتيم

كُسِر الكـأس علـى روعتِـه — وبكَتْ خَمـري ادكـارات النـديم
آه من جرحي ومـن لوعتِـه — آه من ليلي ومن حزنـي المقـيم
أنا مهما قلـتُ عـن أمجـاده — يتأظى القَقْـد عنـدي.. ويقـيم
أين منـا حبـه.. اللامنتهـي — أين منّا وجهه الصافي الوسيم(١٩)

وعلى الرغم من أن الموقف يطفح بـالحزن العظـيم، والشاعر يعبر عن جزعه وأساه ولوعته بالآه الصـارخة، إلا أنه لم ينس أن يتحدث عن الوجه الوسيم.

وتتمزق الشاعرة جليلـة رضـا، وتكفـر بالكلمـات، وتستصرخ الأرض أن تكف عن الدوران، وأن ينهـد جبـلُ المقطم ويتحطم، ويجف النيل بسبب الفجيعة، فلا حيـاة بعـد جمال، فتقول:

صليتُ للكلمـات عمـرا كـاملاً — وجثَتْ علـى محرابهـا الأفكـار
وكفرتُ بالكلمات حين ترنحـتْ — وأصـــابها يــوم الــوداع دوار
يا يومنا المشئُوم يا يوم الأسى — أوما عراك من الفَجيعـة عـار
حزن، وكم حزن حملت وإنمـا — هـو ذلـك العمـلاقُ والجبـار
والحزن قد يأسوه خِلٌ صـادق — إلاه.. فهو الخِل وهـو الجـار
ووجدتُني أَهذِي، وربي عـاذِر — فهو العليم بنـا.. هـو الغفّـار
لِم لم تكُفْ الأرض عن دورانها — لِم يعقُب الليـلَ البهـيم نهـار
لِم لم يعد جبلُ المقَطـم هاويـا — ويجِـف نيـلُ بلادنـا الهـدار
وسألت مصر ومصرنا مسـكينة — قد هز كـل كيانهـا الإعصـار

تبكي ويبكـي حولهـا أبناؤهـا والدرب مـوج والـديار قفـار
ساروا بغير هدى وقد ولى الهـدى وتوقف القلب الكبير فخـاروا(٢٠)

والشاعرة حين تميل إلى كل هذه المبالغات، فإنما تعبـر عن تلك النظرة الأسطورية إلى الزعيم، فهو ليس قائدا فارق الحياة، بل إن موته فجيعة جعلتها تكفر بالكلمات، وتتحـدث عن اليوم المشئوم والحزن الذي لا يأسوه خل، وتعجـب لأن الأرض لم تكف عن دورانها، ولم يبتعد الليـل البهـيم عـن النهار، ولم ينهد جبل المقطم متحطما، ولم يجف النيل العظيم أسى. ولو أن شيئًا من هذا الذي ترجوه الشاعرة حدث لمـا كان الفقيد بشرا عاديا، لكنها النظرة الأسطورية التي تحـدثنا عنها. ومن الحق أيضا، أن نقول: إن وفاة عبد الناصر كانت ألما قاسيا لجسد لم يبق فيه مكان للألم من طول ما عاجلتـه الآلام، وتابعته الويلات.

أما الشاعر كامل أمـين فيصـف الـزعيم بالبطولـة والشجاعة، والوفاء والجبل الأشم، والهرم، وتلـك صـفات يوصف بها الناس عـادةً، لكنـه يضـيف إليهـا الصـفات الأسطورية أيضا، فيقول: إنه صاحب الفكر الـذي يطـاول الجوزاء، والعمر الذي تساوي كل ساعة منه جيلاً، والعظـيم الذي ينحني أمامه خوفو استحياء، وهو الذي كـان يطـوي

الأرض فتئن تحته، ويشير إلــى الصــحراء فتزهــر فيهــا الخضرة ويسعى إليها النيل:

كانــت حياتُــك يــا جمــالُ فــداء
وبطولــة وشــجاعة ووفــاء

أرسيتَ كالجبل الأشم علــى الثــرى
فكــرا يكــاد يطــاول الجــوزاء

خمسون عامــا كــل مطلــع ســاعة
منهــا بجيــل يثْمِــر الأحيــاء

وكأنــه هــرم علــى جنباتــه
عزماتُ خوفــو تنحنــي استحياء

عجبــا لمــن مــلأ الحيــاة بصــيته
كيف انزوى تحــتَ الثــرى مومياء

وهو الذي مــا كــان يطــوي الأرض
إلا وهــي تــرزح تحتــه إعيــاء

وأشــار للصــحراء فاخْضــرتْ لــه
وسعى إليهــا النيــل يجــري المــاء

بكت العيون له فلمــا غِــيض الســد
مــع البكــا، بكــت القلــوب دمــاء

يــا مــن تصــافِحك العيــون محبــة
وتطــوف حوليــك العيــون ولاء

يا من بــك احتفــت العيــون كأنَهــا
بك أَبصــرتْ بعــد العمــى الأضــواء

فرحــت بمــا بــك أَبصــرتْه كأنّهــا
لولاك عاشــتْ عمرهــا عميــاء(٢١)

ويبين الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة في قصيدته "خالدة مصر" كيف انفجر النبأ الفاجع حتى أذهــل الزوجــة عــن زوجها، وقد شُب البيت نارا بموت جمال، واكتست الدنيا لون السواد حزنًا وحدادا ويأسا وأسى:

في منتصف الليل
تحت ملاءات الأطفال
ينفجر النبأ الفاجع

"مات عظيم هذى الليلة"

....

تخرج مصر

من دفءٍ طمأنينتها

تسبح في أمواج ظلام المستقبل

ها هي نقطة حبر أسود

تسقط فوق النيل

تتسع وتعلو حتى الشاطئ

تتجاوزه تلتهم المدن المذهولة

تنقض على أكواخ القرية

تصحو الزوجة

تخرج من أحضان الزوج

توقظه "شب حريق يا زوجي في البيت"

....

أخرج أعدو

يتبعني يسبقني

سيف النبأ الفاجع

مات جمال

مات الأب[٢٢]

وبكاه نزار قباني بكل ما في الدموع من مرارة، ورثـاه بقصيدة ذاعت في أركان عالمنا العربي، ورسمه آخر مثـل أعلى تتعلق به الأبصار، وآخر الأنبياء في الزمن الضال، بل جعله قتيلاً تحمل العروبة كلها وزر دمه بعد أن خرجت عن تعاليمه، ومنها قوله:

قتلناك.. يا جبل الكبرياء

وآخر قنديل زيت

يضيء لنا في ليالي الشتاء

وآخر سيف من القادسية

قتلناك نحن بكلتا يدينا

وقلنا المنية

لماذا قبلت المجيء إلينا

فمثلك كان كثيرا علينا

ورفض كثير من الشعراء تصديق نبأ موت عبد الناصر وكأنه ليس بشرا يصدق فيه كل ما يجري على مخلوقات ا ، لكنها النظرة الأسطورية جعلتهم لا يقبلـون فيـه المـوت. واستخدم كثير من الشعراء تعبيرات مثل: "لا.. لـم يمـت"

وكأنهم يقولون: إن عبد الناصر لا يخضع للناموس الطبيعي، أو كأن نظرتهم الأسطورية جعلتهم يغربون به بعيـدا عـن حقيقة الموت الأزلية، فقال أحمد عبد المعطي حجازي يرثيه بقصيدته: "الرحلة ابتدأت":

لا.. لـم يمـت وخرجنـا نجـوب ليـلَ المدينـه
ندعوك، فاخرج إلينـا ورد مـا يزعمونـه[٢٤]

أما صلاح عبد الصبور فكتب بكائية إلى عبد الناصـر عنوانها "الحلم والأغنية" يقول فيها:

لا.. لم يمت
وتظل أشتاتُ الحديث، ممزقات في الضمائر
غافيات في السكينة
حتى تصير لها من الأحزان أجنحة
تطير بها كلاما مرهقًا، يمضي ليلقفه الهواء
يرده لترن في جدران دور مدينة الموت الحزينة
أصواتُ أهليها الذين نبت بهم سرر البكاء
يتجمعون على أرائك السمر الفقير
معذبين ومطرقين
الدمع سقياهم، وخبزهم التأوه والأنين

يلقون –بين الدمعتين- زفير أسئلة،

تُخَشْخِشُ مثل أوراق الخريف الذابلات

هل مات من وهب الحياة حياته؟

حقًا؟ أمات؟

ماذا سنفعل دونه

ماذا سنفعل بعده

هل مات؟[٢٥]

وتمضي الشاعرة طلعت الرفاعي على الـدرب نفسـه، وترى صوت النعي افتراء لا يجوز قبوله فهذا محال:

من قال إن جمال مات؟

من افترى؟

من قال زال؟

هو صامد، في حومة الميدان

في قلب الرجال

هو شعلة الفولاذ في دمنا

على درب النضال

من قال إن جمال مات؟

من افترى؟

هذا محال

ما مات عملاق العروبة

قم وأذن يا بلال[٢٦]

وكتب الشاعر عبد المنعم الرفاعي قصيدته "رثاء البطل" يكذب فيها الخبر، وكيف يموت من بعث الروح في المـوتى فصاروا ثائرين مناضلين:

كلا.. فما صدق النـاعي ولا الخبـر

وتلـــك أعلامــــك الغـــراء تنتظـــر

يا باعث الروح في الموتى، الطراد دنا

والخيــلُ تصــهل، والميــدان يســتعر

والقدس من لوعة اللقيـا لناصـرها

تهفــو بأرجائهــا الآيــات والســور[٢٧]

أما الشاعر عبد العليم القباني فرأى أن مـوت الـزعيم يقين أحب منه الضلال، وعبر عن ذهوله بالمبالغة الشـديدة التي تصور غرابة الخبر واستبعاده، فقال:

أيهـا السـائلون.. كيـف المحـال؟

هكـــذا.. هكـــذا.. تَمِيـــد الجبـــالُ

هكــذا.. هكــذا الكواكــب تهــوي
حـــين تهـــوي- وتســـحق الآمـــال
رب صــدق دنــا، فــأوفى، فأَضــفَى
فتغـــالى، فلـــم يطِقْـــه الخيـــال
ويقـــينٍ تـــزاور القلـــب عنـــه
وهـــو فـــي كـــل خفقـــة زلـــزال[٢٨]

ولجأ الشاعر علي الباز إلى المبالغة الصارخة أيضـا، قائلاً: إن عبد الناصر حي يقود على الرغم من موتـه، أمـا الشاعر فقد مات إذ بلغه نبأ موت الزعيم:

يقولــون: هــلا رثَيــتَ جمــالاً   **أجبتُ.. وهل أسـتطيع المحـالا**
وكيف؟ وقَد مِـت.. لمـا علِمـتُ   **ومن مـاتَ لا يسـتطيع المقـالا**
وكيف؟ وقد ظَـل رغْـم الممـات   **يقود.. ويحيا.. ويحدو النضـالا**
أَيرثي الذي ماتَ.. من ظَـل حيـا   **ويحيا.. ويحيا.. سـنين طـوالا**[٢٩]

وكتب الشاعر محمد عبد الرحمن إدريس قصيدته "لا.. لم يمت" ليؤكد فيها موقف الرفض للنبأ الفاجع، والتعبير عن الشعور بالمباغتة والانذهال، ويستكمل بعض ملامـح تلـك

النظرة الأسطورية في تأكيده أن الزعيم لـم يمـت، وكيـف يموت وقد كانت رسالته وحي السماء وما أوحت به الكتب:

بل لم يمت، فهو فـي وجـدان أمتـه

حـي بكـل شـعار نـابض يشـب

بلْ لم يمتْ، فهو في أضواء سـيرته

مبـادئ بـالعلا والحـق تلتهـب

وهـل يمـوتُ فتـى كانـت مبادئـه

بعثًـا تُخَلـده الأزمـان والحِقَـب

وهل يمـوتُ فتـى كانـت رسـالته

وحي السماءِ وما أَوصتْ به الكُتب(٣٠)

وسجل الشاعر عبد المنعم الأنصـاري هـذا الموقـف الأسطوري أيضا في شعره، فحين تلقى النبأ الفاجع عصـف به الذهول، واستمهل الشك لعل النبأ كاذب، وإذ تـيقن منـه انتظر معجزة عودة الحياة إلى الزعيم، ولم لا؟ أليس الزعيم معجزة السماء؟ ألم يكن الشعب ميتًا فأحياه الـزعيم؟ لكنهـا مشيئة ا نفذت:

أَصغَيتُ للنبأ الرهيب، وغُصـتُ فـي

موج الذهول على الأريكـة حينًـا

ثم انتبهـتُ إلـى الجمـوع.. وكُلنـا

يسـتَمهلُ الشـك المعـذب فينـا

فعسى تعـود لـك الحيـاةُ.. وربنَـا

بالُمعجزاتِ عليـك لـيس ضـنينًا

أَولَسـتَ معجـزةَ السـماء؟ وأننَـا

متنَا، وكنـت أتيـتَ كـي تحيينـا

لكنمـ ـ ـ ـا أي مشـ ـ ـ ـيئة؟

نفذت.. وصار الشك فيك يقينًا(٣١)

وكتب نزار قباني عددا من القصائد عقب وفـاة عبـد الناصر، انطلق فيها جميعها من ذلك الموقف الأسـطوري.. والنظرة التي تخرجه بعيدا عن الناموس العام الذي يسـري علينا، وكما وصفه بأنه آخر الأنبياء وكتب "السيد نام":

السيد نام

كنوم السيف العائد من إحدى الغزوات

السيد نام

فكيف أصدق أن الهرم الرابع مات؟

القائد لم يذهب أبدا

بل دخل الغرفة كي يرتاح

وسيصحو حين تُطل الشَمس

كما يصحو عطر التفاح

الخبز سيأكله معنا

وسيشرب قهوته معنا

ونقولُ له ويقول لنا

القائد يشعر بالإرهاق

فَخَلوه يغْفُو ساعات

ويتصل بتلك النظرة الأسطورية أيضا وصف مشهد جنازة عبد الناصر في قصائد الشعراء، فلقد تصادف مع وفاته احتفال المسلمين بذكرى الإسراء والمعراج، وعند الجنازة نقلت طائرة هليكوبتر جثمان الفقيد من القصر الجمهوري بالقبة إلى مقر مجلس قيادة الثورة، ولقد عد الشعراء وفاة عبد الناصر في هذا التوقيت تكريما له من السماء، كما صور خيالهم الطائرة وهي تحمله وكأنها البراق يصعد إلى السماء، وتكرر هذا الوصف في عديد من القصائد، لعل أبرزها قصيدة الشاعر صالح جودت التي تخيل

فيها البراق، والملائكة، والجنة، وجبريل، والمسيح، وقابيـل وكربلاء:

أمع الإسـراء نادتـه السـماء كدتُ أن أحسبه فـي الأنبيـاء

علـت الطـائرة الثكلـى بـه فَتَخيلْـتُ براقًـا فـي الفضـاء

كـدتُ أن أسـمع فـي موكبـه نغَـم الأمـلاك يعلُـو بالـدعاء

كدتُ أن ألمـح فـي معراجـه طيفَ جبريل يحيـي الشـهداء

كـدتُ أن أَشـهد فـي آفاقـه مشهد الجنـة وعـد الشـهداء

قلتُ والجثمان يعلُو في السـما إنه -حيا وميتًـا- فـي عـلاء

وتمثلـتُ مسِـيحا صـاعدا أفَمـا كـان مسـيح الزعمـاء

يحمـلُ الآلام عـنهم، ويـرى أنـه الفـادي إذا عـز الفـداء

صـلبتْه لوعـةٌ داميـة في خيـام اللاجئـين التعسـاء

طعنتـه يـد قابيـل التـي طوت العهـد وأودتْ بالإخـاء

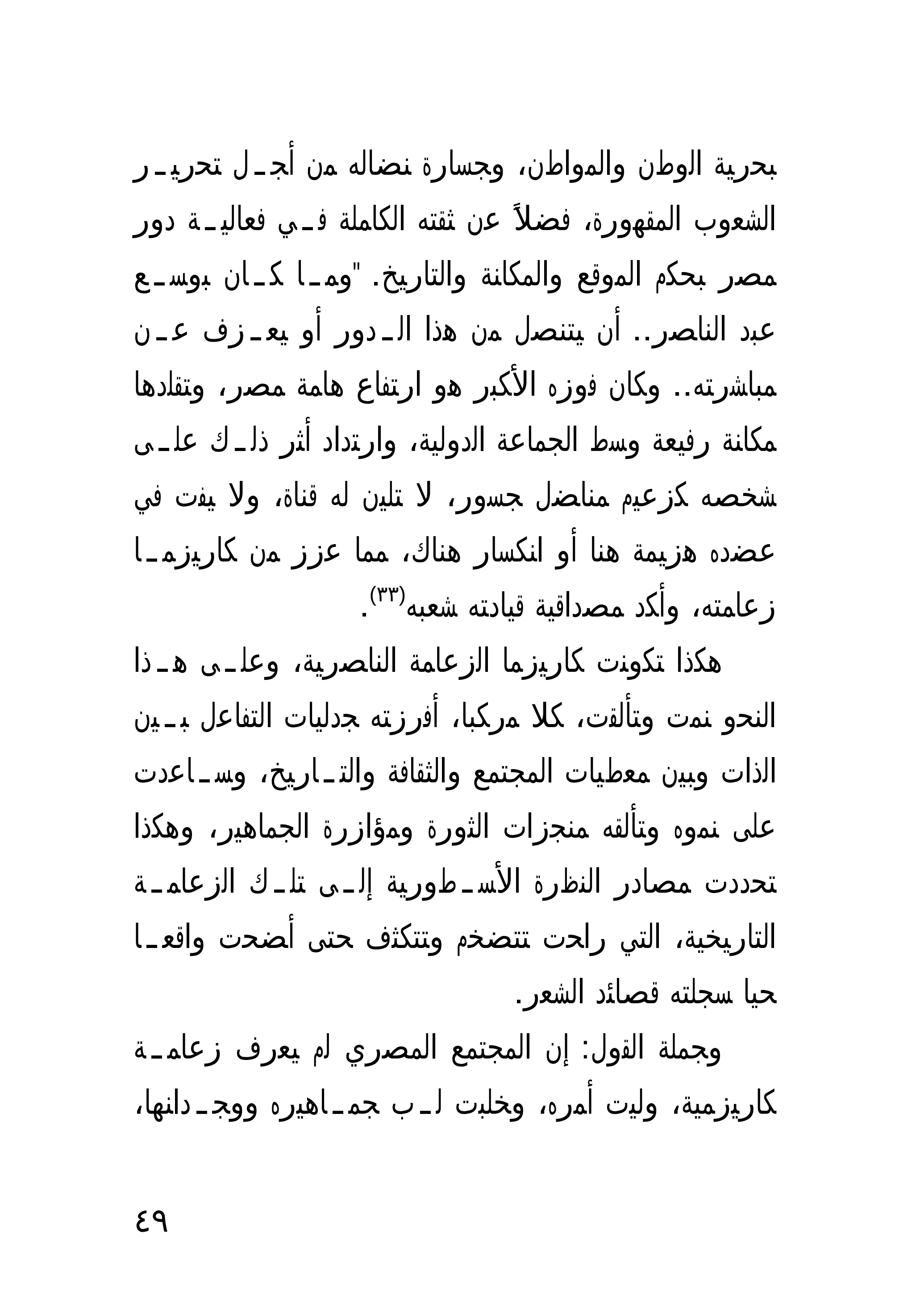
ذَبحتْـه نَكْبـة العـرب التـي جددتْ في الناس ذكرى كربلاء[٣٢]

فرسم الشاعر جوا أُسطُوريا لمشـهد الجنـازة وكأنـه يرفض أن تكون جنازة بشر، فلم يكتف بالإسراء والمعراج، بل أحاط الموقف كله بمشاعر وقصص دينية؛ كي يدفعنا دفعا إلى الاتفاق معه فيما فرضه.

وأكد الشاعر هذا المعنى الأسطوري على امتداد القصيدة، حين صوره كالقدر يقضي ما يشاء ولا ينطق عن هوى، بل هو كالأهرام والنيل والسد العالي والأزهر فقال:

نحن لولا الموت قلنا إنه	**كان كالأقدار يقضي ما يشاء**
لو سئلنا فدية في دمه	**لافتدته كُل نَفْس بالدماء**
كان لا ينطِقُ فينا عن هوى	**أو يقولُ القول للناس رئاء**
كان كالأهرام مجدا وعلا	**كان كالنيل انطلاقًا ووفاء**
كان كالسد شُموخًا ونَدى	**كان كالأزهر طُهرا ونقاء**
كان في تاريخنا أكرم من	**كَرم العِلم، وزكّى العلماء**
ورعى الفَن وحيا أهله	**وحباهم بأكاليل الثنَاء**
وحمى الدين ونادى بالتقى	**في زمان قَل فيه الأتقياء**
واصطفاه ا للعرب، فما	**كان إلا خامسا في الخُلفاء**

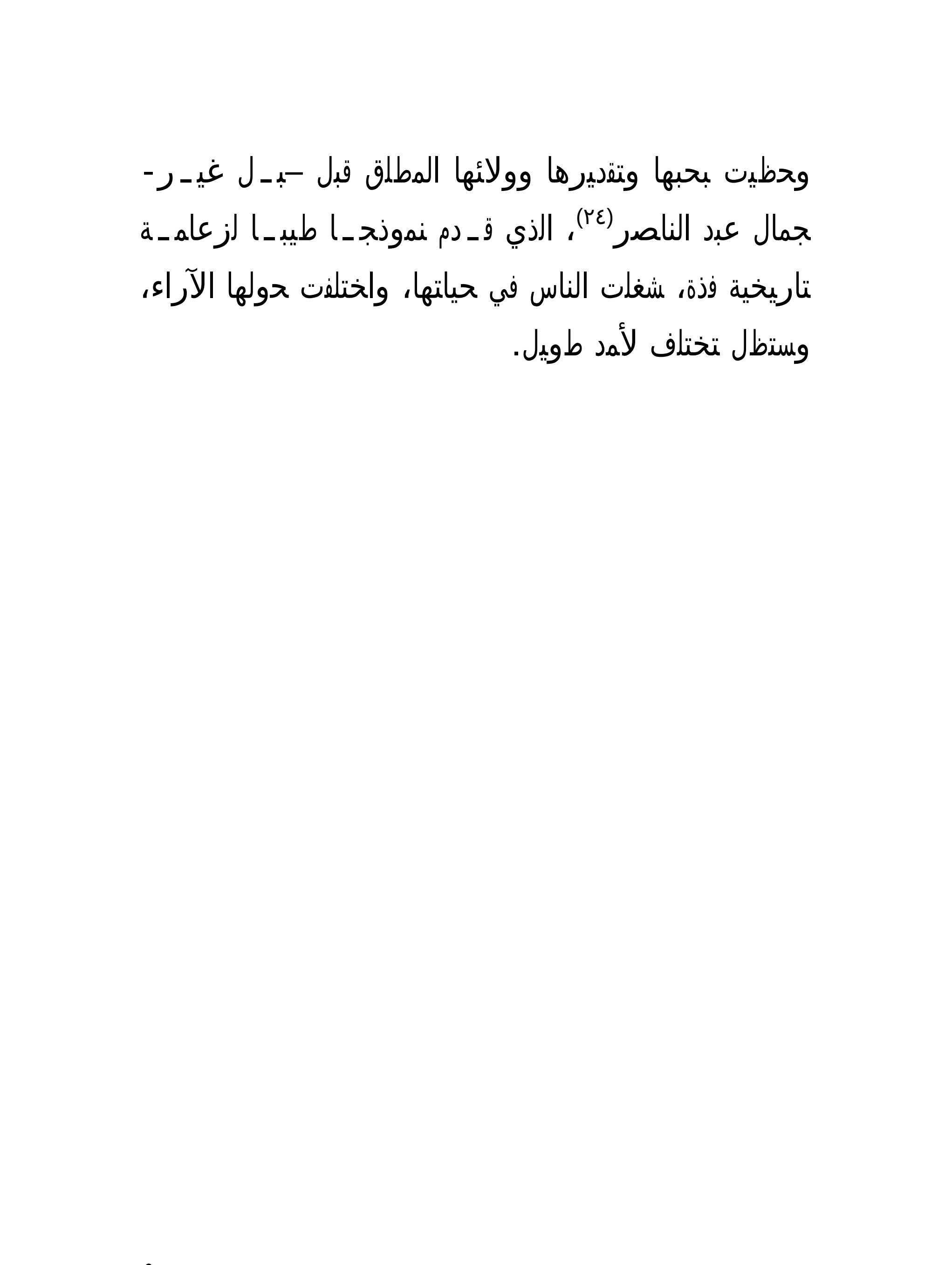
ولا مندوحة لنا عن القول إن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت منعطفًا خطيرا في مسيرة تطور المجتمع المصري، مثلما كانت عاملاً محوريا أصيلاً في تنامي كاريزما الزعامة الناصرية وتألقها. يؤكد ذلك سجل حافل بالإنجازات السياسية والاجتماعية الكبيرة. ورصيد ثري من تأييد الجماهير ومساندتها، فتألقت زعامة عبد الناصر، فأسلمته الجماهير مقاليدها، وحبته ذلك الشرف بعدما تبين لها عمق إيمانه



بحرية الوطن والمواطن، وجسارة نضاله من أجـل تحريـر الشعوب المقهورة، فضلاً عن ثقته الكاملة فـي فعاليـة دور مصر بحكم الموقع والمكانة والتاريخ. "ومـا كـان بوسـع عبد الناصر.. أن يتنصل من هذا الـدور أو يعـزف عـن مباشرته.. وكان فوزه الأكبر هو ارتفاع هامة مصر، وتقلدها مكانة رفيعة وسط الجماعة الدولية، وارتداد أثر ذلـك علـى شخصه كزعيم مناضل جسور، لا تلين له قناة، ولا يفت في عضده هزيمة هنا أو انكسار هناك، مما عزز من كاريزمـا زعامته، وأكد مصداقية قيادته شعبه[٣٣].

هكذا تكونت كاريزما الزعامة الناصرية، وعلـى هـذا النحو نمت وتألقت، كلا مركبا، أفرزته جدليات التفاعل بـين الذات وبين معطيات المجتمع والثقافة والتـاريخ، وسـاعدت على نموه وتألقه منجزات الثورة ومؤازرة الجماهير، وهكذا تحددت مصادر النظرة الأسـطورية إلـى تلـك الزعامـة التاريخية، التي راحت تتضخم وتتكثف حتى أضحت واقعـا حيا سجلته قصائد الشعر.

وجملة القول: إن المجتمع المصري لم يعرف زعامـة كاريزمية، وليت أمره، وخلبت لـب جمـاهيره ووجـدانها،



وحظيت بحبها وتقديرها وولائها المطلق قبل وبعد غياب جمال عبد الناصر[٢٤]، الذي قدم نموذجاً طيباً لزعامة تاريخية فذة، شغلت الناس في حياتها، واختلفت حولها الآراء، وستظل تختلف لأمد طويل.

هوامش الفصل الأول

(١) عفيفة الحصني، ديوان وفاء، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٧.

(٢) السابق، ص ٣٧.

(٣) السابق، ص ٣٩.

(٤) السابق، ص ٤٧-٤٨.

(٥) السابق، ص ٤٩.

(٦) السابق، ص ٥٢.

(٧) السابق، ص ٥٦.

(٨) السابق، ص ٦٠-٦١.

(٩) السابق، ص ٦٥.

(١٠) السابق، ص ٧٠.

(١١) ديوان باقات من الوفاء يقدمها شعراء الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٧٠.

(١٢) عفيفة الحصني، ديوان وفاء ص ٢٨.

(١٣) السابق، ص ٣٦.

(١٤) السابق، ص ٤٦

(١٥) حلمي مرزوق، ديوان الملحمة الوطنية، ص ١١٤.

(١٦) علي الجندي، ديوان ترانيم الليل، ص ٥٢.

(١٧) صالح جودت، ديوان ألحان مصرية، ص ١٨٦.

(١٨) محمد إبراهيم أبو سنة، ديوان حديقة الشتاء، الأعمال الشعرية، ص ٤٨١.

(١٩) أبو آمنة حامد، ديوان ناصريون نعم، ص ٢٩، دار النجاح، بيروت، ١٩٧١.

(٢٠) مجلة الرسالة الجديدة، العدد الأول، مايو ١٩٧١، ص ٧٤.

(٢١) السابق، ص ١٨

(٢٢) قصيدة بعد الوداع، مجلة الهلال، عدد أكتوبر ١٩٧٠، ص ٣٠.

(٢٣) السابق.

(٢٤) كتاب تذكاري، وداعا عبد الناصر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص ١٢.

(٢٥) السابق، ٤٩.

(٢٦) السابق، ص ٦١.

(٢٧) السابق، ص ٧١.

(٢٨) ديوان باقات من الوفاء، يقدمها شعراء الإسكندرية.

(٢٩) السابق.

(٣٠) السابق.

(٣١) السابق.

(٣٢) مجلة الهلال أكتوبر ١٩٧٠.

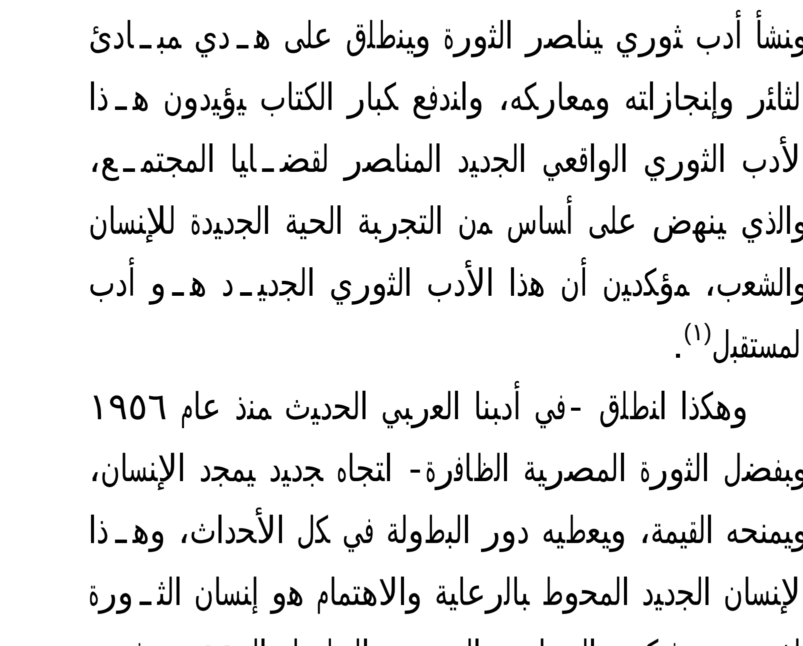
(٣٣) د. السيد الزيات، في سوسيولوجيا بناء السلطة، ص ٣٤٣، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.

(٣٤) السابق، ص ٣٣١.

الفصل الثاني

عبد الناصر الثائر

كان عبد الناصر ثائرا، لا يعرف الدعة، أو السكينة، كما لم يعرف المساومة أو الخضوع، استطاع أن يلهب مشاعر الجماهير بذلك الإيقاع الثوري الحاد المتلاحق، وتلك المعارك المتصلة بغير فتور.



وانصهر المجتمع كله في بوتقة الثورة، ودار في فلك قضاياها على جميع الأصعدة داخليا وخارجيا، وجمع الناس بين الثائر والثورة، وربطوا بينهما على نحو غير منفصم، ونشأ أدب ثوري يناصر الثورة وينطلق على هدي مبادئ الثائر وإنجازاته ومعاركه، واندفع كبار الكتاب يؤيدون هذا الأدب الثوري الواقعي الجديد المناصر لقضايا المجتمع، والذي ينهض على أساس من التجربة الحية الجديدة للإنسان والشعب، مؤكدين أن هذا الأدب الثوري الجديد هو أدب المستقبل[١].

وهكذا انطلق -في أدبنا العربي الحديث منذ عام ١٩٥٦ وبفضل الثورة المصرية الظافرة- اتجاه جديد يمجد الإنسان، ويمنحه القيمة، ويعطيه دور البطولة في كل الأحداث، وهذا الإنسان الجديد المحوط بالرعاية والاهتمام هو إنسان الثورة الذي يتحد فيكون الجماهير التي هي البطل الحقيقي في

المرحلة الجديدة، بعد أن أعلت الثـورة مـن شـأن الفـرد والمجتمع[٢].

وانخرط في هذا الاتجاه الجديد شعراء كثيرون، جلّهـم من الشباب، شكلوا تيارا قويا واسعا، احتل مكانـه الواضـح تحت شمس الأدب، وسجل شعراؤه أسـماءهم فـي الحيـاة الأدبية مثل محمد كمال عبد الحليم، وصلاح عبد الصـبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، ومحمد مهران السـيد، وعبـد الرحمن الشرقاوي، وكيلاني حسن سند، وكامل أيوب، وأمل دنقل، ونجيب سرور وغيرهم.

وآمن هؤلاء الشعراء بأن الفن الأمثل هو الفن الثوري، صاحب الدور القيادي في المجتمع، وينشأ هذا الدور استجابة لظروف المرحلة التي تقتضي من الفنان التزاما بقضايا أمته وعصره، واعتناقها والصدور عنها، رفضا للظلـم ونضـالاً ضد القوى الاجتماعية الفاسدة، وإيمانًا بقيمة التضـامن فـي القضاء على أعداء الوطن والثورة داخليا وخارجيا، وتأكيـدا لأهداف الثورة، ورغبة في بناء المجتمع الجديد.

ونجح عبد الناصر الثائر، بفضل أفكاره الثورية، في أن يحدث ثورة في شتى مناحي حياة المجتمع، ومنها الشعر، فقد

آمن الشعراء بأفكاره ومبادئه، وصار الشاعر ثائرا مناضـلاً يدافع عن قضية، ويلعب دورا قياديا، ويسـعى إلـى تثـوير المجتمع، ويحفظ ركب الثورة من كل سوء.

لقد صار الشاعر ملتصقًا بأرض الواقع بكل قوة ولم يعد مجرد مبدع حالم هائم في ملكـوت الكـون، وبلـغ الأمـر بالشعراء درجة جعلتهم يرون في إسهامهم بالفكر والقلم فـي حياة المجتمع والدفاع عنه أمرا غير كاف، فراح الشاعر يحلم بساعة يحمل فيها السلاح بيده ليقاتل الأعداء ويسـد بجسـده طريقهم إلى الوطن، فهذا عبد الرحمن الشرقاوي يأسف لأنه لم يشترك بجسده ويده في مقاومة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ بعد عجزه عن العودة من الخارج إلـى مصـر بسبب العدوان، وانقطاع المواصلات الدولية، فأصابه الغـيظ والحزن والكمد، فقال:

والغيظ من قطع الطريق

والحزن إذ إني حرمت من اشتراكي في المعارك

قد كنت أحلم أن يكون دمي فداء الآخرين

قد عشت أرجو أن أخوض المعركة

لا بالقلم

بل باليمين

قد عشت أحلم أن أسد بجثتي ذلك الطريق

كي لا يمروا[٣]

فالشاعر الثوري صار يرى أن الموقف الثوري كل متضافر يلتحم فيه القول بالفعل، فالموقف الثوري لا يعرف التجزئة أو التقسيم، فالشاعر يؤمن بالثورة ويغني لها، لكنه يشترك بيده في ترجمة الأفكار والأهداف إلى حقائق تنبض وتنهض على أرض الواقع.

وهكذا يعلن أحمد عبد المعطي حجازي إيمانه بالثورة، والتحامه بالجماهير الظافرة التي دفعتها قيم الثورة إلى العمل والحياة الكريمة، وقد فتحت أمامها أبواب السيادة والعزة، ويرى ذلك ظفرا جديرا بالإثبات ليخلد على الزمن:

فلتكتبوا يا شعراء أنني هنا

أزاحم الجموع

أخوض بحرا أسمر المياه

أخوض بحرا من جباه

بحر الحياة – ما أشد عمقه- بحر الحياة

طوفانه يا شعراء سيد مهيب

يمضي فتنحني السدود

ويفتح الضياء ألف كوة عليه

ويطلق البوق النحاسي النشيد[٤]

واجتهد الشعراء في تصويرهم لجماهير الثـورة الفتيـة التي تقهر المستحيل، فالحديث عن الإنسـان دائمـا متصـل بالإنسان الثوري الجديد، كما أنه مرتبط بشخص الزعيم قائد الثورة الذي يدفع الجماهير ويوحد العرب، هو أيضا حـديث يرفع شعارات الثورة مثل الحرية والعدالة والسـلام، وهـي الشعارات السياسية ذاتها التي رفعها الـزعيم الثـائر وألـح عليها، وراحت ترددها الجماهير في كل مكان.

فلتكتبوا يا شعراء أنني هنا

أشاهد الزعيم يجمع العرب

ويهتف (الحرية.. العدالة.. السلام..)

تلتمع الدموع في مقاطع الكلام

وتختفي وراء الحوائط الحجر

....

يا شعراء يا مؤرخي الزمان

فلتكتبوا من شاعر كان هنا

في عهد عبد الناصر العظيم[٥]

فالشاعر يرفع الشعار الثوري ويغني له ويتغنى به، ولا يقف عند ذلك بل يعتز مباهيا أنه عاش في عصر عبد الناصر العظيم، ويصرخ بذلك كي يسمِع الدنيا جميعا. وحتى تسجله صفحات التاريخ فخرا واعتزازا.

ويجاهد الزعيم الثائر لتحقيق الجلاء وطرد المحتل الغاصب، ويعلن أن على الاستعمار أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل، وتعيش الجماهير أمجد المشاعر الوطنية بجلاء البريطانيين عن مصر في يونيو ١٩٥٦.

وتخفق القلوب كلها فرحا لرفع العلم المصري على مبنى البحرية ببورسعيد، إعلانًا للاستقلال وتتويجا لكفاح الشعب، وتحقيقًا لوعد الزعيم الثائر، وتأكيدا على عزة الثورة الشعبية، وفي هذا انتصار للحرية والحياة، وتحقيقًا لأمل عزيز طالما ناضلت الجماهير من أجله، ويفرح صلاح عبد الصبور برفع العلم المصري، فيقول في قصيدته "مرتفع أبدا":

لترتفع، لترتفع، يا أيها المجيد

يا أجمل الأشياء في عيني أنت يا خفاق

يا أيها العظيم، يا محبوب، يا رفيع، يا مهيب
يا كل شيء كان في الحياة أو يكون
يا علمي، يا علم الحرية[٦]

وهب الشعراء يمجدون الثائر بطل الجلاء، وقـد أزاح عن صدر مصر كابوسا يظنونه لا يـزول وتأججـت روح الثورة ومشاعر الفرحة في صدور الجماهير، وتتالت قصائد الشعراء تحيي بطل الجلاء وتكيل له أمجد الصـفات، فهـو محقق الآمال البعيدة، والمظفر، والمنصور، النور بين يديه، والسعد يحيطه، له في العيون جلال وبهـاء، وفـي جبينـه أمارات الطهارة والتقى، وله خصال الحزم والتوفيق والرأي والتدبير يقول علي الجندي:

فوق القناة تجلت رفعـة العلـم — تحيي لنا قصة طالت ولـم تـنم
تحكي لنا قصة الأجداد رائعـة — فيها الجهاد يصارع بغي منـتقم
كان الجلاء له رمـزا لعزتنـا — حتى سعدنا على فيض من النعم
رفع الرئيس لنا علمـا نمجـده — فيـه منانـا ونفديـه بحـر دم
صرنا نعيش تنادينـا سـيادتنا — حتى ننـافس سـادة الأمـم[٨]

ويسعد عبد العلـيم القبـاني بالحريـة التـي أطاحـت بالقياصرة والدخلاء، والذل والألم المكبوت، وأعـادت لنـا الكرامة والنور والنصر:

اليوم لا قيصر عـاتٍ ولا خـدم ... ولا دخيل له فوق الربـا علـم

اليوم عادت إلى الوادي كرامته ... واستشرف النور من أهوتْ به ظُلَم

مضى الزمان الذي إمساؤه رهـب ... وصـبحه كهـلال الشـك مـتهم

تفجر الألـم المكبـوتُ وانطلقـت ... من فورة الوعي في أعماقنا حمـم

ومن أحس دبيب الذل فـي دمـه ... أولى به النصر أو أولى به العدم[٩]

وأعلن الثائر عبد الناصر تأميم قناة السويس المصـرية ليسترد لنا حقًا سليبا، وليؤكد العزة والسيادة الوطنية، وحتـى تنهض مصر بتنفيذ مشروع السد العالي، فرقصـت قلـوب المصريين فرحا بتأكيد السيادة المصرية في كل شـبر مـن أرض الوطن، وكسر شأفة الاستعمار والاحتكارات العالمية، وتعاظمت مشاعر الإحساس بالقوة في نفوس الثوار.

وجن جنون الدول الاسـتعمارية العظمـى، وتـآمرت إنجلترا وفرنسا مع إسرائيل لغزو مصـر واحـتلال القنـاة، وتأديب الثائر، وكسر شوكة الثورة، وتابعت الجماهير بكـل الحماسة الأحداث التي تلاحقت عقب قرار التأميم، مثل عقـد مؤتمر لندن، وانسحاب المرشدين الأجانب من القناة، وإنذار الدول الكبرى لمصر، وغيرها من الأحداث التي بلغت قمـة تصاعدها بوقوع العدوان الثلاثي.

وذهب الثائر إلى الجامع الأزهر رمـز القـوة الدينيـة الهائلة ليعلن من فوق منبره أننا سنقاتل ولن نستسلم، وسندافع عن أرضنا حتى آخر رجل وآخر قطرة دم، فاشتعلت مشاعر الناس حماسة ووطنية وإصرارا على دحر العدوان. وأبـرز الشعراء موقف الثائر قائد الجماهير في هذا الموقف العظيم:

في الجامع الأزهر المعمور صيحتُه ... دوت عليه فهزت ثابـت العمـد
قد قال قولتـه، شـدت عزائمنـا ... "إنا نقاتل" في حزم وفي كبـد
ما دام قد فرض البـاغي مقاتلـة ... فيها الوقود لدينا روح متقـد
إنـــا نجالـــده حتـــى يغادرنـــا ... إيماننا ثابت بالصبر والجلـد
قلنا: فداك دماء في الوغى طهرتْ ... والوالد المفتدى في نُصرة الولـد(١٠)

وكتب الشاعر محمد المهدي المجذوب عددا من القصائد انفعالاً بالعدوان الثلاثي وأحداثه توجه فيها إلى الثائر بطـل النيل، يصوره ويمجده، ويشد أزره ويؤيـده، فـي تصـديه للاستعمار، ومن ذلك قوله:

فيا بطـل النيـل، ويـا روحـه ... ويـا فارسـا يشْـتَهيه الخيـالْ
صلاتُك في الجـامع الأزهـري ... صـلاة النبـي لـدى المعركـة
يبايعـــه الفئـــة المؤمنـــون ... علـى قتلهـا الفئـةَ المشـركة
ونخـــرج للفئـــة الجـــائرة ... وأعلامنـــا حـــرة ثـــائرة
نلاقـــي منيتنـــا الحاســـرة ... بأوجهنـــا الحـــرة الســـافرة
ونســـتر بالـــدم أعراضـــنا ... لآلـــئ فـــي اللجـــج الزاخـــرة

وهيهات أن تسقط القاهرة   محال محال محال محال[١١]

وكان من نتيجة دحر العدوان الثلاثي وهزيمته أن صار عبد الناصر رمزا عالميا للنضال ضد الاستعمار، وصـارت دعوته دعوة عالمية للتحرر ونبذ الاستعمار، وتبعت الشعوب المقهورة خطاه المناضلة ضد كل أشكال التبعية والإذلال في كل أنحاء العالم واشتعلت حماسة المصريين، وتأجج الشعور الوطني نتيجة الإيقاع السريع المتلاحق للأحـداث والتهـب الشعراء بشعارات الثائر الذي أعلن انخراطـه فـي الثـورة العالمية ضد الاستعمار وأعوانه، واتحد الموقف النضالي لكل الثائرين، وصارت معاركنا جزءا من منظومة الثورة الشاملة ضد الاستعمار في كل مكان وأولها الأرض العربيـة التـي تقاوم الاستعمار،ولم يفصل الشعراء بين مقاومـة العـدوان الثلاثي على مصر وبين التصدي للاستعمار في كـل مكـان مثل فلسطين والجزائر والملايو وإفريقيا وآسيا. فهذا محمـد كمال عبد الحليم يهدد العدو، ويؤكد تمسكه بأرضه ووطنـه، ويعلي قوة الثورة، فقوة الثورة واحدة، وحركة التحرير عامة:

دع سمائي، فسمائي محرقة

دع قنالي، فمياهي مغرقة

واحذر الأرض فأرضي صاعقة

هذه أرضي أنا

وأبي قال لنا:

مزقوا أعداءنا

....

أنا عملاق قواه كل ثائر

في فلسطين وفي أرض الجزائر

والملايو، وشعوب كالبشائر

تنبت الأزهار من بين المجازر[١٢]

لقد تألقت زعامة جمال عبد الناصر الثورية، ولم يعد زعيما ثائرا لمصر وحدها، بل قائدا لثورة التحرر الوطني في الأمة العربية، وزعيم الثورة الوطنية في كل دول العالم الإسلامي والعالم الثالث، وكان عبد الناصر الثائر واعيا لخطواته مدركًا لمداها، وضرورة تتابعها؛ ولذا قال منذ بداية ثورة يوليو ١٩٥٢: "لن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء، لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان. أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقيا شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم

صراع مروع حول مستقبلها، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالما إسلاميا تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينيـة فحسب، وإنما تشدها حقائق التاريخ.. كل هذه الحقائق أصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا، لا نستطيع مهمـا حاولنـا أن ننساها أو نفر منها.. إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوارا بطولية مجيدة قاموا بها في ظـروف حاسمة على مسرحه، وإن ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بهـا على مسرحه. ولست أدري لماذا يخيل إلي دائما أن في هـذه المنطقة التي نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عـن البطل الذي يقوم به، ثم لست أدري لماذا يخيل إلي أن هـذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة فـي كل مكان حولنا قد استقر به المطاف منهوك القـوى علـى حدود بلادنا، يشير إلينا أن نتحـرك، وأن نهـض بالـدور ونرتدي ملابسه، فإن أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به"(١٣).

هكذا كان عبد الناصر يؤمن أن القدر قد اختـاره لأداء هذا الدور، وكان يعتقد في داخله أن الشخصـية المصـطفاة

لأداء البطولة التاريخية التي أرهقها التجول في العالم بحثًا عنه. لقد اتخذ من التاريخ القدوة والمثل في أن البطولة المجيدة يصنعها الأبطال بأنفسهم في ظروف حاسمة، وأن البطولة الهائمة على وجهها تبحث عن بطل قد وجدت فيه ضالتها أخيرا.

فلا مشاحة في أن بطولة عبد الناصر، وأداءه لدور قيادي عالمي قد انبثقا من داخله أولاً، إيمانًا راسخًا، ويقينًا أكيدا بأنه المهيئ لهذا الدور التاريخي، وظهر ذلك واضحا في كلماته وشعاراته ومواقفه، فقد كانت الثورة المصرية بالنسبة له نقطة البدء، لينطلق بعد ذلك إلى دوائر أوسع تنتهي بالثورة العالمية.

ومنذ هذا التاريخ ظهر في حياتنا جهاز إعلامي قوي مثير، قادر على زرع أفكار وحقائق ثابتة، جهاز إعلامي خطير قادر على صنع اهتمامات الجماهير وحشدها وتوجيهها إلى حيث يريد، وكان ذلك دليلاً على قوة تيار الثور واتساعه، وقدرته على تغيير الواقع، وصنع واقع جديد. ومنذ هذا التاريخ أيضا برز الثائر عبد الناصر رمزا عالميا للثورة ضد الاستعمار، وضد هيمنة الدول العظمى على مقدرات

الشعوب الصغيرة، وأبرز الشعراء صورة الثائر العظيم فـي شتى مواقفه ومواقعه، وأبرزوا شعاراته وأفكاره حتى أضحت مادة أساسية للشعر العربي، فهذا شاعر لبنان محمـد حبيـب صادق يقول في قصديته (فارس العرب)[١٤]:

عالمــا فــي بــواطن الكــر والفــر	**جلــــودا لا يــــألون اقتحامــــا**
تفتــدي المتعبــين بالراحــة الكبــرى	**وتجلُــو عــن القلــوب السـقاما**
سل موالي الإقطـاع فـي أرض مصـر	**من بنـي عِزهـا وأرسـى الـدعاما**
مــن أجــار العمــال مــن ليــل ذل	**فــانبروا للحيــاة صــيدا كرامــا**
وســل الضــاربين فــي التيــه عنــه	**ضـوءهم كـان، مـاءهم والطعامـا**
لــم يلُــح للجمــوع حتــى رأتــه	**حلمها الشـهم، زنـدها الصمصـاما**
عاهدتك الجهـاد فـي الزعـزع المـر	**اقتــــداء وأســــلمتك الزمامــــا**
ســيد القــول إذ يكــون ابتــداء	**لكفــــاح أو أن يكــــون ختامــــا**
قولــك الفعــل فــي قــرار المعــاني	**قولــك الفصــل إن أردت انحســاما**

وهذا شاعر اليمن إبراهيم الحضراني، يقول[١٥]:

صمود الفـذ والأحـداث عاصـفة	**مرت بنا مثل مـوج البحـر يلـتطم**
علمتنا كيف تسمو النفس صاعدة	**بالفرد والفرد قد تسمو بـه الأمـم**

وتبارى الشعراء في تسجيل مختلفة المواقف والمعارك، بل إن منهم من أوقف عطاءه الشعري على هذا الجانب الذي رأوه متسقًا مع طبيعة الموقف الثوري الجديد للشاعر الجديد.

واندفع الشعراء يمجدون الثائر ويرددون شعاراته مثل (إننا أمة تحمي ولا تهدد، تصون ولا تبدد) ومثل (نسالم من يسالمنا، نعادي من يعادينا) و (تشد أزر الصديق، ترد كيد العدو) و (تؤكد العدل وتدعم السلام) وغيرها من الجمل السائرة التي كان يطلقها الثائر، فالشاعر يصف الأمة بقوله:

قام البناء بها مـن عـزم ناصـرها
لا ترتجـي غيـر توفيـق لبانيهـا

أجرى بهـا خيـرات عـز جانبهـا
حتى تجلى عليهـا فضـل مجريهـا

في دولة لم (تهدد) غيرها، صـعدت
ولم (تبدد) و (تحمي) ظهر حاميهـا

(تقوى) على الدهر في تحقيق وحدتها
(توحد) الرأي لا (تفريـق) يطويهـا

(تسالم) الحـر لا (تفـريط) يـدفعها
إلـى التخلـف بـل تبنـي بأيـديها

(تشــد أزر صــديق) رام عزتهــا

(تــرد كيــد عــدو) رام يرميهــا

(تؤكد العدل) في صـدق تريـد بـه

(دعم السلام) لمن فيه يواليهـا(١٦)

وأبرز الشعراء شخصية عبد الناصر ثـائرا محبوبـا، تلتف من حوله الجماهير حبـا وتأييـدا؛ ولـذا فقـد صـنع المعجزات وأزرى بالأمجاد جميعا بعد أن أقام مجدا عريضا لا يطاول، يقول الشاعر محمد برهام:

الكل خلفك لا حزب ولا شـيع وهم دعاء إذا انفضوا أو اجتمعـوا

يا ثائرا تحت جنح الليل في ثقة وهمـة بجسـيم الأمـر تضـطلع

يلوذ بالصمت والأقـدار ناطقـة يحـدد الخطـو، والآمـال تتسـع

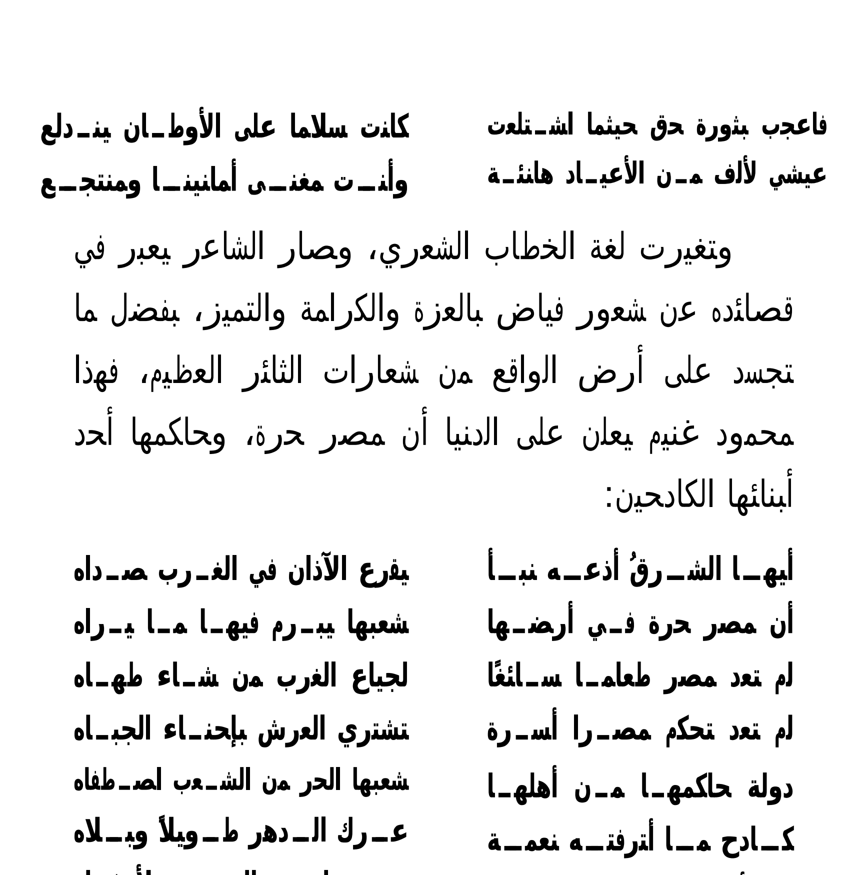
حتى رمى، ورمت أيـد تسـانده فبارك ا ما جاءوا ومـا صـنعوا

جمال أزريت بالأمجاد أجمعهـا والـريح عاتيـة تـذرو وتقتلـع

أقمت مجدا عريضا لا تحيط بـه عــزائم، فــإذا رامتــه يمتنــع

يا باني السد جلّت آيـة عجـب وأنت للآي خـلاق ومبتـدع(١٧)

ويتصل الحديث عن الثائر البطل دائما بالحديث عن الثورة الماجدة، التي اشتعلت فنشرت السلام وحققت الأمل:



فاعجب بثورة حق حيثما اشتعلت ... كانت سلاما على الأوطان ينـدلع
عيشي لألف مـن الأعياد هانئـة ... وأنـت مغنـى أمانينـا ومنتجـع

وتغيرت لغة الخطاب الشعري، وصار الشاعر يعبر في قصائده عن شعور فياض بالعزة والكرامة والتميز، بفضل ما تجسد على أرض الواقع من شعارات الثائر العظيم، فهذا محمود غنيم يعلن على الدنيا أن مصر حرة، وحاكمها أحد أبنائها الكادحين:

أيهـا الشـرقُ أذعــه نبـأ ... يقرع الآذان في الغـرب صـداه
أن مصر حرة فـي أرضـها ... شعبها يبـرم فيهـا مـا يـراه
لم تعد مصر طعامـا سـائغًا ... لجياع الغرب من شـاء طهـاه
لم تعد تحكم مصـرا أسـرة ... تشتري العرش بإحنـاء الجبـاه
دولة حاكمهـا مـن أهلهـا ... شعبها الحر من الشـعب اصـطفاه
كـادح مـا أترفتـه نعمـة ... عـرك الـدهر طـويلاً وبـلاه
ما رأى فـي مهـده ملعقـة ... من نضار خـالص تمـلأ فـاه
لا على سـلطانه يخشـى ولا ... يرهب الفقر إذا الفقـر اعتـراه(١٨)

لقد تجسدت في قصائد الشعراء فكرة الثورة الشاملة، فلم يعد الشاعر يرفض المستعمر ويصب غضبه على الاستعمار فحسب، بل يتحدث عن مقاومة الاستعمار في كل دولة مثـل الكونغو وغانا والجزائر وغيرها. ويمجـد أبطـال الثـورة

والتحرير مثل لومومبا ونكروما وغيرهما، لكن عبد الناصر ظل النموذج الأعلى للثائر ذي الصوت القوي المدوي لتحرير الشعوب المقهورة. يقول الشاعر محمد الفيتوري:

يا وطني

عبارة الناصر من ورائه

مظلة على الأفق

وسيفه المهند الصقيل

في لون الشفق

وجبهة الناصر صانع البطولات

تكاد لا ترى من العرق

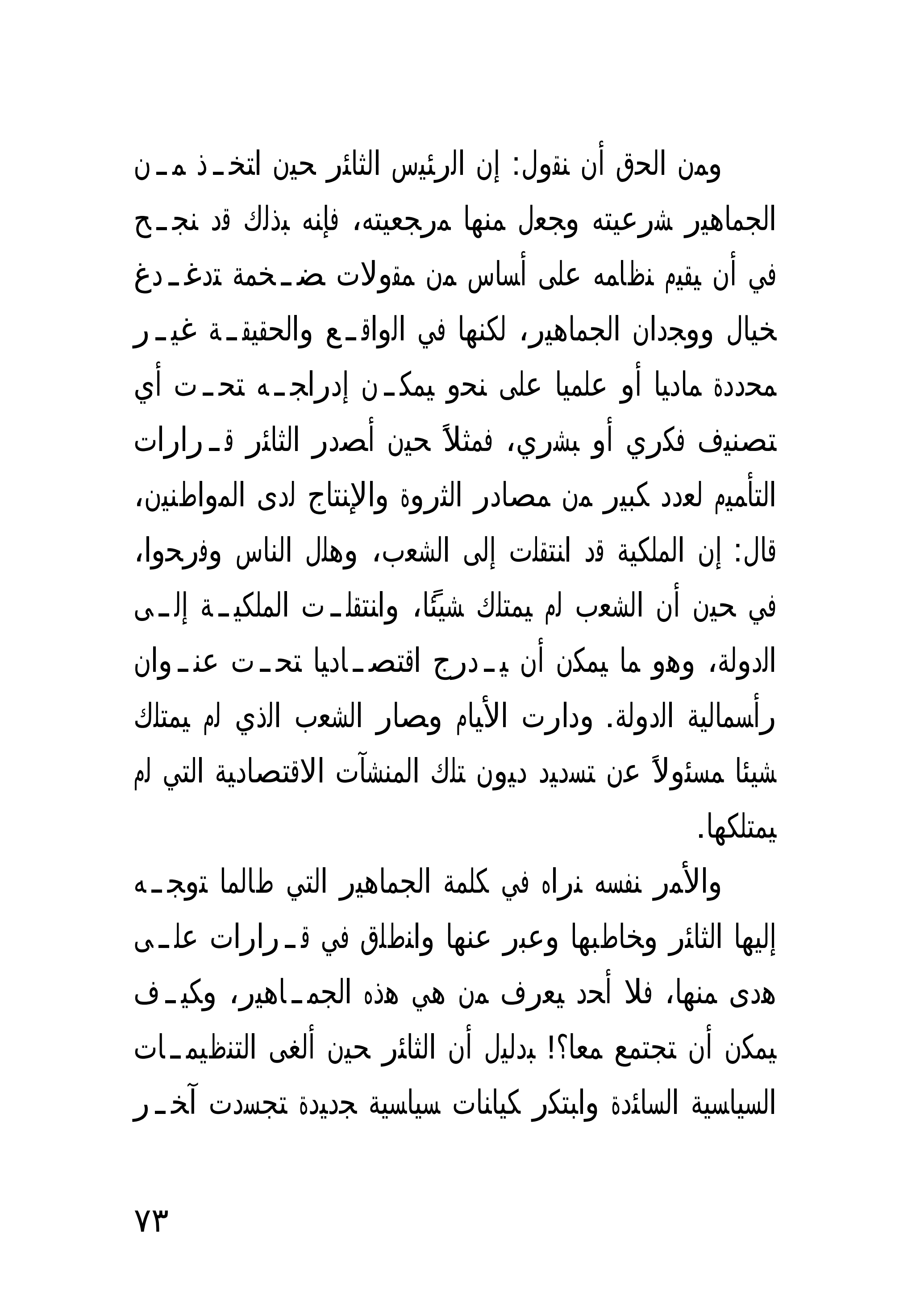
وددت لو قبلت تلك الجبهة السمراء

فهي سحابة ترش الأرض بالنماء

وهي حمامة بيضاء

طارت ألف ميل[١٩]

وهكذا أفاض الشعراء في إبراز شخصية الثـائر الـذي ينهض بالأعمال الماجدة وغير التقليدية، والذي يتوجه بندائه إلى الجماهير وليس إلى مجلس أو مؤسسة كما جرى العرف.



ومن الحق أن نقول: إن الرئيس الثائر حين اتخذ من الجماهير شرعيته وجعل منها مرجعيته، فإنه بذلك قد نجح في أن يقيم نظامه على أساس من مقولات ضخمة تدغدغ خيال ووجدان الجماهير، لكنها في الواقع والحقيقة غير محددة ماديا أو علميا على نحو يمكن إدراجه تحت أي تصنيف فكري أو بشري، فمثلاً حين أصدر الثائر قرارات التأميم لعدد كبير من مصادر الثروة والإنتاج لدى المواطنين، قال: إن الملكية قد انتقلت إلى الشعب، وهلل الناس وفرحوا، في حين أن الشعب لم يمتلك شيئًا، وانتقلت الملكية إلى الدولة، وهو ما يمكن أن يدرج اقتصاديا تحت عنوان رأسمالية الدولة. ودارت الأيام وصار الشعب الذي لم يمتلك شيئا مسئولاً عن تسديد ديون تلك المنشآت الاقتصادية التي لم يمتلكها.

والأمر نفسه نراه في كلمة الجماهير التي طالما توجه إليها الثائر وخاطبها وعبر عنها وانطلق في قرارات على هدى منها، فلا أحد يعرف من هي هذه الجماهير، وكيف يمكن أن تجتمع معا؟! بدليل أن الثائر حين ألغى التنظيمات السياسية السائدة وابتكر كيانات سياسية جديدة تجسدت آخر

الأمر في شكل الاتحاد الاشتراكي، قال: إنه يعبر عن تحالف قوى الشعب العامل، وعلى الرغم من هذا عجز الناس جميعا عن تعليل سبب تحديد هذه القوى دون غيرها، كما عجـزت الدولة والشعب معا عن تعريفها في تحديد قاطع.

ولكن الشعراء غنوا للثائر، كما غنوا للجماهير التي يناديها وهو يعلن أن الحكم للشعب الذي صار يحكم بعد أن تحرر من نير الاستعمار والقصر والملكية وغيرها:

ثـار الأبـي وفيـه سـر عزتنـا — نـادى فكنـا لـه قلبـا وآذانـًا
نـادى (الجمـاهير) أن تحيـا معمـرة — حتـى تحيـل خـراب الظلـم عمرانـا
قـد قـال قـول شـجاع ماجـد بطـل — (الحكـم للشـعب) لا نرضـاه قربانـا
إعلاننـا (حقنـا فـي حكـم أنفسـنا) — من عزة الحق و(التحريـر) قـد حانـا
صـار النظـام (بجمهوريـة) صـلحت — فيها التقينا، علـى الإخـلاص لقيانـا

وكلما أطلق الثائر شعارا سارع الشعراء كي يسجلوه في قصائدهم تأكيدا للمد الثوري، وحين قال: "إن على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل" قال الشاعر:

قال الرئيس لمن قد عاش محتـالاً — (ارحـل) ودعنـا وإلا كنـت قتـالاً
طالت علينا عهود الظلـم باغيـة — وأنت (عهـد بغـيض) بيننـا طـالا
(احمل عصاك) ولا ترجع لنا أبدا — يا مدعي الحق، كم أظهرت إخلالاً[٢١]

وحين تحقق الجلاء الإنجليزي عن مصـر، ورحلـت قوات الاحتلال، مجد الشعراء الثائر الـذي طـرد المحتـل القوي، ورفع علم بلاده حرا، وكـرروا ألفاظـه وشـعاراته السياسية، مثل:

قلنا لـه قولـة هـدت عزائمـه	**(احمل عصاك) على كتف يغادرنـا**
قمنا (نثور) لنطرده علـى عجـل	**لكنــه قــام مغــرورا، وقاومنــا**
وفي (القناة) تجلت مـن بواسـلنا	**مباهر النصـر تخزيـه، فسـالمنا**
قد نكس الرأس في علـم ينكسـه	**ثـم اعتلـى علـم فيـه مفاخرنـا**
وقبل (الناصر) المـأمول جبهتـه	**ثم انثنينا نناجي فيـه (ناصـرنا)**
نجم التحرر فيه المجـد مؤتلـق	**يسعى إلينا وروح ا ساعدنا[٢٢]**

واهتم الشعراء كثيرا بكل الألفاظ والتعبيرات السياسـية التي أطلقها الثائر وكانت دائرة في هذه المرحلة؛ لأنها كانت تعبيرا عن الثورة وقوتها، والولاء لها، وتعبيرا عن الواقـع الثوري الملتهب فراحوا يتحدثون عن (الدفع الثوري) و (اليد التي تبني)، وغيرها من الألفاظ والتعبيرات التـي أعلنتهـا الثورة، وأكثر الثائر من استخدامها مثل:

واليـوم نحيـا آمنـين أعـزة	**والشعب مسعود بصدق ولائـه**
في (دفعه الثوري) يبني مجـده	**(بيد) الأمان لخيره ورضائه[٢٣]**

وبفضل شعارات الثائر واستجابة الناس لها صار الشاعر مشغولاً بتمجيد الثورة وإعلائها، وبيان أنها ثورة للجماهير تمحو عنها العار، وتصنع لهم الواقع المجدي، وتزهر في غدهم الأمل الرائع والموال الجميل، وتحطم تماثيل السادة، وتعلي شأن الكادحين يقول عبد الوهاب البياتي في قصديته (إلى عبد الناصر الإنسان):

أيا جيل الهزيمة، هذه الثوره

ستمحو عاركم، وتزحزح الصخره

وتنزع عنكم القشره

وتفتح في قفار حياتكم زهره

وتنبت أيها الجوفُ الصغار برأسكم فكره

سيغسل برقها هذى الوجوه وهذه النظره

ستصبح هذه الحسره

جسورا وقناديل

زهورا ومناديل

ويصبح باطل الحزن أباطيل

وتزهر في فم الشعب المواويل

ستهوي تحت أقدامك يا جيلي التماثيل



وتسقط عن رءوس السادة التيجان

وتجرفها رياح الكادحين لهوة النسيان[٢٤]

وبعد أن يبرز الشاعر الثورة على هذا النحو الرائع الذي يدغدغ مشاعر الكادحين والمحرومين والمسحوقين، وكل المتطلعين إلى غد أفضل، ينتقل إلى عبد الناصر الثائر الذي يشبه البرق والنهر، ويأتي مع التاريخ والقدر ليهز سلاسل التاريخ ويصنع تاريخًا جديدا للشرق والإنسان، ويدعو الشعراء جميعا إلى أن يوجهوا قصائدهم إلى المارد الثائر الذي جاء ليغير وجه الحياة من حولنا:

فهذا البرق لا يكذب

وهذا النهر لا ينضب

وهذا الثائر الإنسان عبر سنابل القمح

يهز سلاسل التاريخ

مع المطر

مع التاريخ والقدر

ويفتح للربيع الباب

فيها شعراء فجر الثورة المنجاب

قصائدكم له، لتكن بلا حجاب

فهذا المارد الثائر الإنسان

يزحزح صخرة التاريخ

يوقد شمعة في الليل للإنسان

أما الشاعر السوري محمد عمران فيصف الرئيس الثائر بأنه حين ينادي (يا إخوتي) يهل صوته كالعبير المسحور، والأفق الطيب والفجر الندي، ويسكر الناس على حروف كلماته، فتبقى كالضوء، كالشلال، كالرعد، كالبركان، كالصور ينفخ في قبور الراقدين:

يهل صوتك يا جمال

فجرا ندي الضوء، ريان الظلال

أفقًا من الأطياب، مسحور العبير

واحات ظل في الهجير

"يا إخوتي يا كادحين

يا زاحفين إلى النهار

اليوم فجركم المبين

اليوم ينتصر النهار"

ونظل نرتشف الحروف المسكره

حتى تغيب

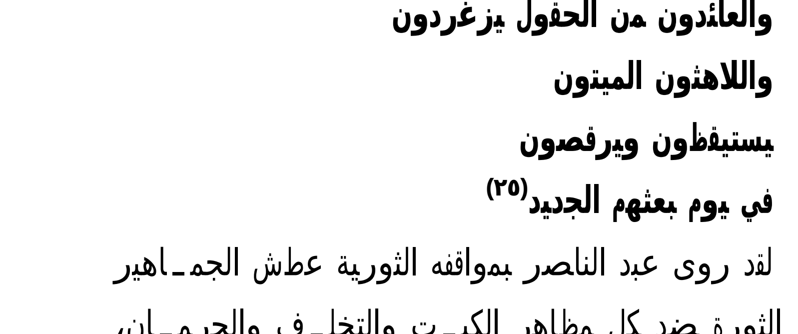
ويعود صوتك يا جمال

كالضوء، كالشلال، يدفق كالجبال

كهدير نبع في الصحارى الظامئاتِ

كالرعد، كالبركان، كالقدر العتيد

كالصور ينفخ في قبور الراقدين



وتهب ضيعتنا، وتسمر الوجوه الشاحبة

والعائدون من الحقول يزغردون

واللاهثون الميتون

يستيقظون ويرقصون

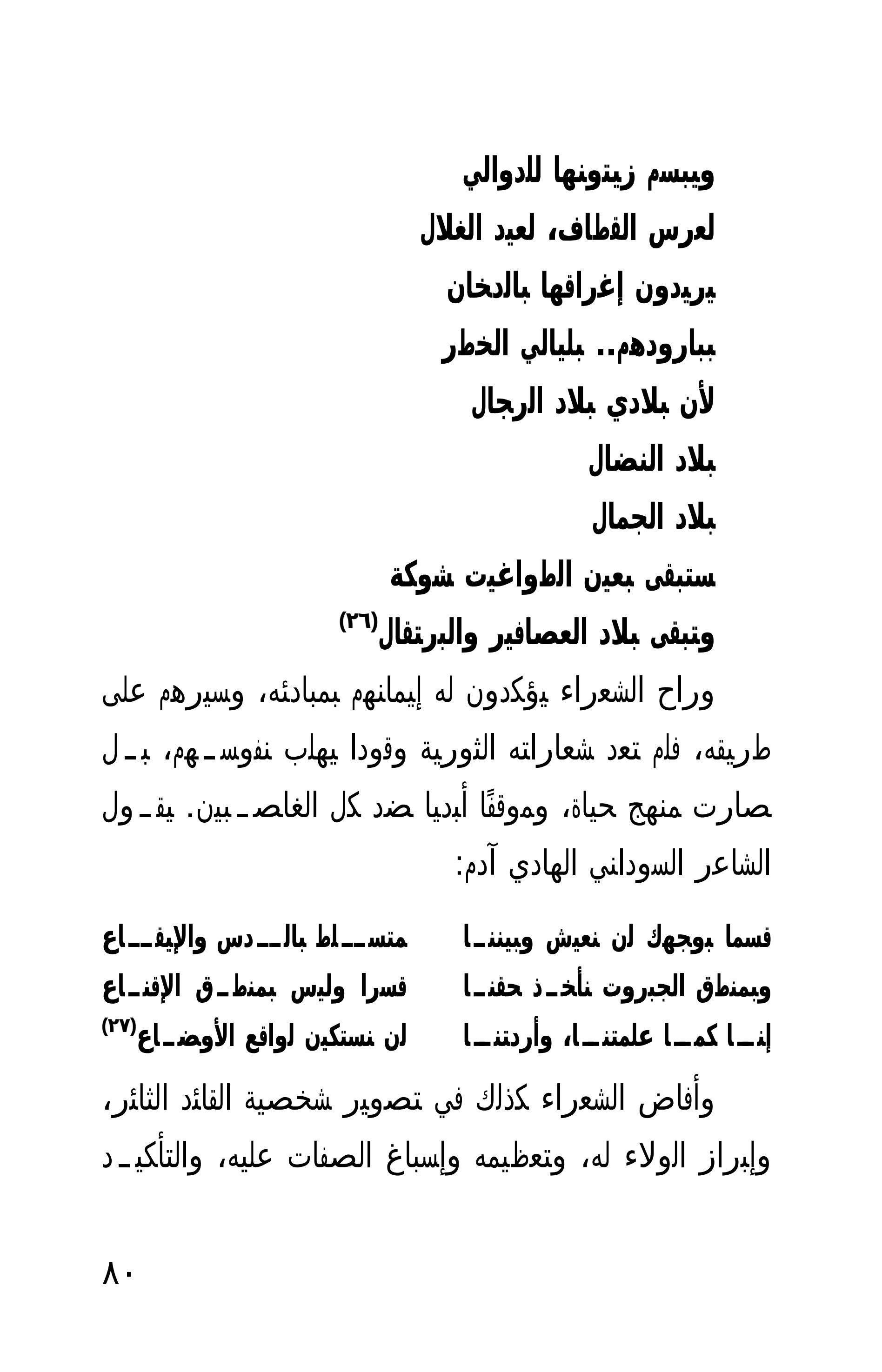
في يوم بعثهم الجديد[٢٥]

لقد روى عبد الناصر بمواقفه الثورية عطش الجماهير إلى الثورة ضد كل مظاهر الكبت والتخلف والحرمان، فصارت الثورة حديث الشعر، أما شخص الثائر عبد الناصر فقد غدا النموذج والمثال، حتى غدا الشاعر يتباهى بأن بلاده جمال، يقول الشاعر رفيق الخوري:

لأن بلادي حقول

تموج سنابلها الخيره

وتسحر ليلاتها المقمره



ويبسم زيتونها للدوالي

لعرس القطاف، لعيد الغلال

يريدون إغراقها بالدخان

ببارودهم.. بليالي الخطر

لأن بلادي بلاد الرجال

بلاد النضال

بلاد الجمال

ستبقى بعين الطواغيت شوكة

وتبقى بلاد العصافير والبرتقال[٢٦]

وراح الشعراء يؤكدون له إيمانهم بمبادئه، وسيرهم على طريقه، فلم تعد شعاراته الثورية وقودا يهاب نفوسهم، بل صارت منهج حياة، وموقفًا أبديا ضد كل الغاصبين. يقول الشاعر السوداني الهادي آدم:

قسما بوجهك لن نعيش وبيننا ... متسلط بالدس والإيقاع

وبمنطق الجبروت نأخذ حقنا ... قسرا وليس بمنطق الإقناع

إنا كما علمتنا، وأردتنا ... لن نستكين لواقع الأوضاع[٢٧]

وأفاض الشعراء كذلك في تصوير شخصية القائد الثائر، وإبراز الولاء له، وتعظيمه وإسباغ الصفات عليه، والتأكيد

على صفات الصدق والإخلاص والوداد له، فهو الناصر بعد نصر ا :

نفدي الذي قد صار يفدينا ويحفظنـا	**من كل طاغ، وبالإيمـان يرفعنـا**
نفديه بالروح في صـدق وإخـلاص	**مع الوداد، وحب المجـد يجمعنـا**
مــن ذا ســواه نعاهــده ونقــدره	**وهو الذي –بعد نصر ا - ينصرنا**
في جمهوريتنا نرعـى العهـود لـه	**فـي كـل بـادرة نلقـاه يعهـدنا**
إن الرئيس قـد اخترنـاه فـي ثقـة	**من دفع ثورتنا بالخير يسعدنا(٢٨)**

والحديث عن هذا الجانب في شخصية عبـد الناصـر، يضعنا أمام حقيقة أساسية التزم بها طويلاً في حكمه، وكانت سببا في الخلاف السياسي الكبير معه –كما يظهر في الفصل القادم- تلك هي الشرعية الثورية التي التزم بها دون حاجـة إلى الالتزام بقانون أو دستور أو عرف أو تقليد، فالثائر كان في حاجة إلى بناء مجتمع جديد، وبناء إنسان جديـد، همـا مجتمع الثورة وإنسان الثورة، ومن ثم كانت القوانين وغيرها تمثل عائقًا أمام الدفع الثوري المنشود، فضرب بهـا جميعـا عرض الحائط، والتزم بنوع جديد من الشرعية هي الشرعية الثورية، فالدولة في حالة ثورة، والثورة لها منطقها الخـاص الذي يغاير منطق القانون والدستور، وكليهما يضـبط إيقـاع الجماهير وينظم الحركة السائدة في المجتمع.

ولما كانت الثورة تبني مجتمعا جديدا وإنسانًا جديدا، تكون الأمور التقليدية والمستقرة غير صالحة لها، فالثورة في ذاتها خروج على التقليدي والمستمر، ومن هنا اعتمد الزعيم على الشرعية الثورية التي أتاحت له أن يبطش بأعداء الثورة والمخالفين لها، كما أتاحت تصنيف المواطنين إلى ثوريين، وعملاء، ورجعيين، ورجعية جديدة والثورة المضادة، وغيرها من التصنيفات التي شاعت في هذه المرحلة.

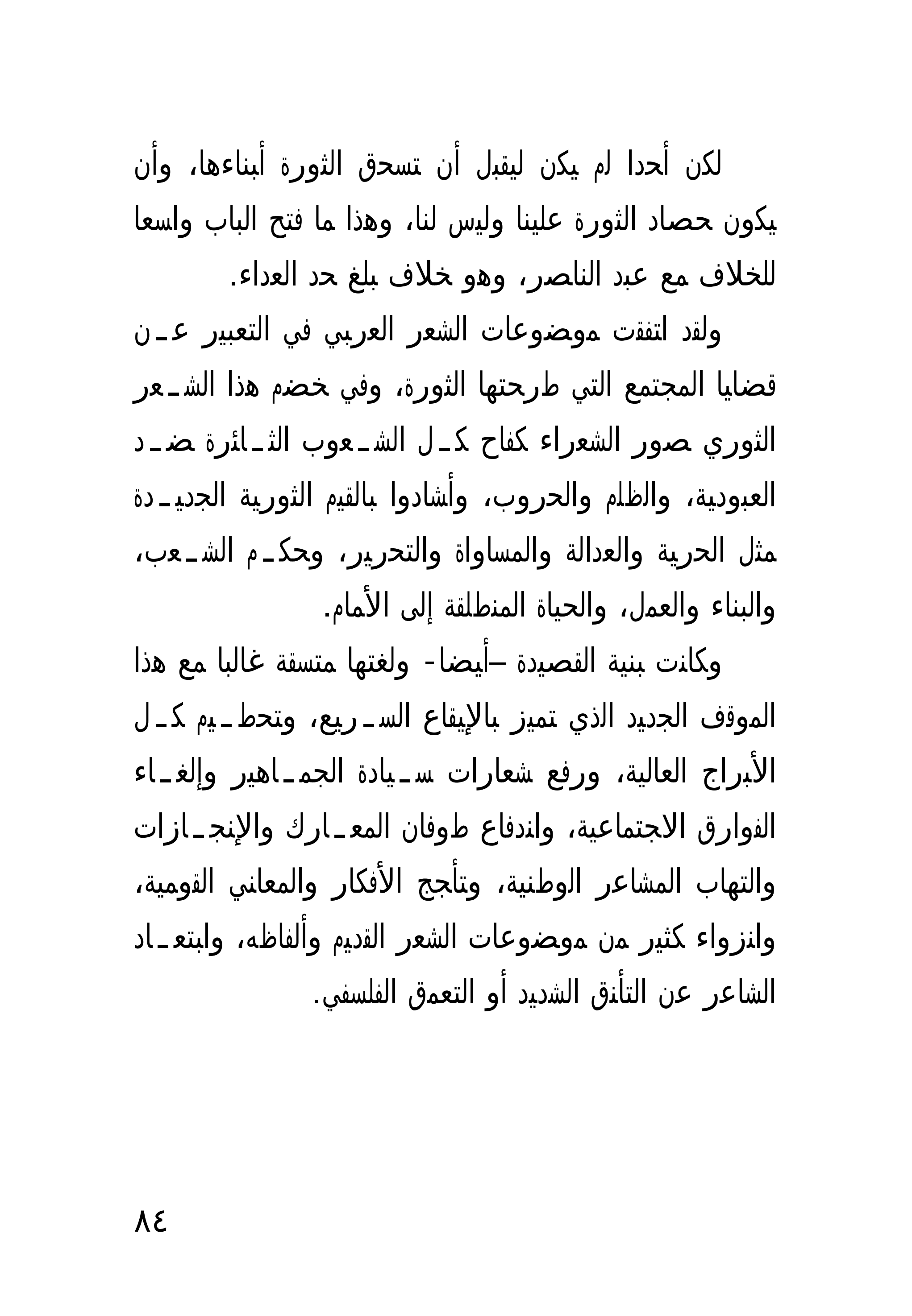
لقد كان عبد الناصر زعيما لأول ثورة كبيرة ناجحة في العالم العربي في العصر الحـديث، "فمنـذ انـدلاع الثـورة العرابية في ٩ سبتمبر ١٨٨١ التي بدأت بحصـار الجـيش المصري بقيادة أحمد عرابي لقصر عابدين، قصر الخـديوي توفيق، لم تقم في الوطن العربي ثورة انفجرت ثم اسـتقرت، ثم غيرت الأمور في الإقليم العربي الذي اندلعت فيه تغييـرا اختفت له المعالم الرئيسة في هذا الوطن"(٢٩)

فقد غيرت من أمور مصـر أكبـر أنظمتهـا، وأبـرز سماتها، ومظاهر أقدم خصائصها؛ فقد أزالت النظام الملكي، وأطاحت بالمِلكية الزراعية من فوق عرشها العالي، وقطعت دابر النفوذ الأجنبي في كل مجالاته، وجعلت التعليم مجانيـا

في جميع درجاته، فتغيرت البنية الاجتماعية حتى احتل قمة المجتمع أبناء الطوائف التي حرمت قبلاً من التعليم. ومن ثم، فإن الثورة المصرية قد غيرت الهياكل الخارجية للمجتمع، كما غيرت أيضا من جوهره.

واتسعت دائرة الثورة خارج حدود مصر، فكان أثر الثورة المصرية عميقًا وواسع النطاق في طول الوطن العربي وعرضه، فوجدت جميع حركات التحرر من الاستعمار الدعم والتأييد المادي والمعنوي من الثورة المصرية، وسقطت رايات الاستعمار في الجزائر وليبيا والعراق واليمن وعدن، وزالت القواعد الأجنبية في الحبانية في العراق، وفي هويلس والعضم في ليبيا، وفي عدن، كما زالت في السويس، فانتصر بذلك تيار التحرر والاستقلال بعد سنوات العبودية والإذلال.

ثم قاد الزعيم الثائر حركة الثورة العالمية، وظهرت حركة عدم الانحياز بزعامته مع تيتو ونهرو فانزعج الاستعمار العالمي، لكن الشعوب المقهورة اتخذته نموذجا ومثالاً، فصار عبد الناصر بطلاً شعبيا بكل المقاييس.



لكن أحدا لم يكن ليقبل أن تسحق الثورة أبناءها، وأن يكون حصاد الثورة علينا وليس لنا، وهذا ما فتح الباب واسعا للخلاف مع عبد الناصر، وهو خلاف بلغ حد العداء.

ولقد اتفقت موضوعات الشعر العربي في التعبير عـن قضايا المجتمع التي طرحتها الثورة، وفي خضم هذا الشـعر الثوري صور الشعراء كفاح كـل الشـعوب الثـائرة ضـد العبودية، والظلم والحروب، وأشادوا بالقيم الثورية الجديـدة مثل الحرية والعدالة والمساواة والتحرير، وحكـم الشـعب، والبناء والعمل، والحياة المنطلقة إلى الأمام.

وكانت بنية القصيدة –أيضا- ولغتها متسقة غالبا مع هذا الموقف الجديد الذي تميز بالإيقاع السـريع، وتحطـيم كـل الأبراج العالية، ورفع شعارات سـيادة الجمـاهير وإلغـاء الفوارق الاجتماعية، واندفاع طوفان المعـارك والإنجـازات والتهاب المشاعر الوطنية، وتأجج الأفكار والمعاني القومية، وانزواء كثير من موضوعات الشعر القديم وألفاظه، وابتعـاد الشاعر عن التأنق الشديد أو التعمق الفلسفي.

هوامش الفصل الثاني

(١) رددت ذلك كتابات كثيرة منها جريدة الشعب، العدد ٢٠٣، ١٩٥٦/١٢/٥ مقال توفيق الحكيم بعنوان "الأدب تجربة وفكرة ومعرفة".

(٢) صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، دار العودة، بيروت، ص ٨٦.

(٣) عبد الرحمن الشرقاوي، ديوان من أب مصري، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨، ص ٤٦.

(٤) أحمد عبد المعطي حجازي، ديوان مدينة بلا قلب، دار الكاتب العربي، القاهرة، ص ١٦٤.

(٥) السابق.

(٦) صلاح عبد الصبور، ديوان الناس في بلادي، ط دار الشروق. ص ٩١.

(٧) علي الجندي، ديوان ترانيم الليل، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٢

(٨) أحمد عبد اللطيف بدر، ملحمة الثورة، بورسعيد ١٩٦٦، ص ٣٢.

(٩) عبد العليم القباني، ديوان أشعار قومية، ص ١٧.

(١٠) أحمد عبد اللطيف، ملحمة الثورة، ص ٣٧.

(١١) محمد المهدي المجذوب، ديوان نار المجاذيب، الخرطوم، ص ١٩٦٩، ص ١١٥.

(١٢) محمد كمال عبد الحليم، ديوان الزحف المقدس، القاهرة، د. ت، ص ١١.

(١٣) جمال عبد الناصر الرجل والمعجزة، ديوان بيرندرانات، ترجمة عبد العظيم رجب، القاهرة ١٩٧٠.

(١٤) محمد حبيب صادق، قصيدة فارس العرب، مجلة الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٧٠، ص ٢٣٠.

(١٥) إبراهيم الحضراني، قصيدة الراحل المقيم، مجلة الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٧٠، ص ٢٣٥.

(١٦) أحمد عبد اللطيف بدر، ملحمة الثورة، ص ٤٦.

(١٧) محمد برهام، ديوان الشموع، دار المعارف، ١٩٧١، ص ١٠٦.

(١٨) محمود غنيم، ديوان في ظلال الثورة، دار المعارف، ١٩٦١، ص ١٨.

(١٩) محمد الفيتوري، ديوان اذكريني يا إفريقية، ص ٢٤٠.

(٢٠) ديوان ملحمة الثورة، ص ١٥.

(٢١) السابق، ص ١٦.

(٢٢) السابق، ص ٢١.

(٢٣) السابق، ص ٦٠.

(٢٤) عبد الوهاب البياتي، قصيدة إلى عبد الناصر الإنسان، مجلة الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٧٠.

(٢٥) الشاعر محمد عمران، المصدر السابق، ص ٧٤.

(٢٦) السابق، ١٧٥.

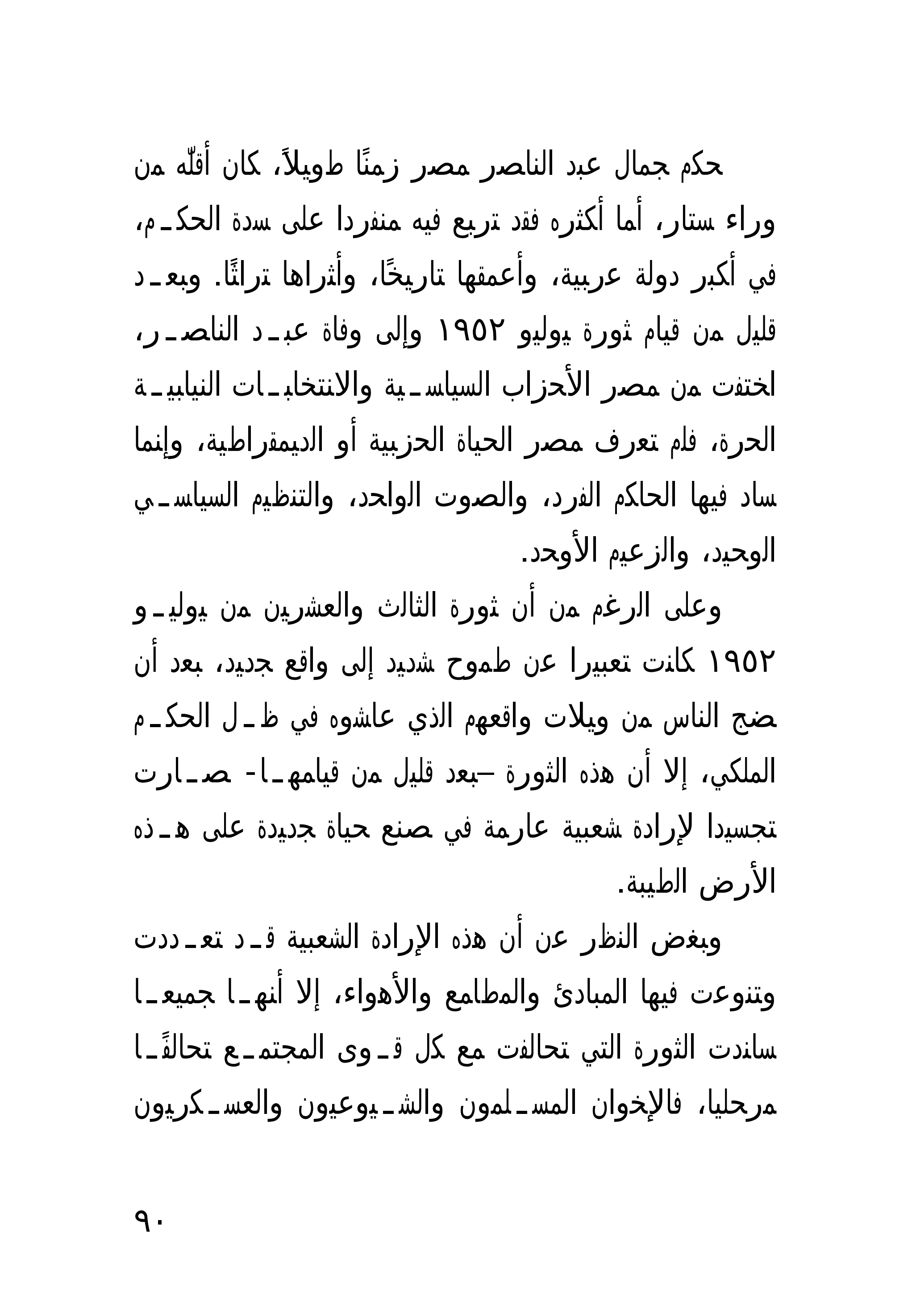
(٢٧) الهادي آدم، قصيدة أكذا تفارقنا، المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٢٨) الملحمة الوطنية، ص ٧١.

(٢٩) فتحي رضوان، عبد الناصر، كتاب الهلال، يوليو ١٩١٩، ص ٤٢.

الفصل الثالث

عبد الناصر السياسي



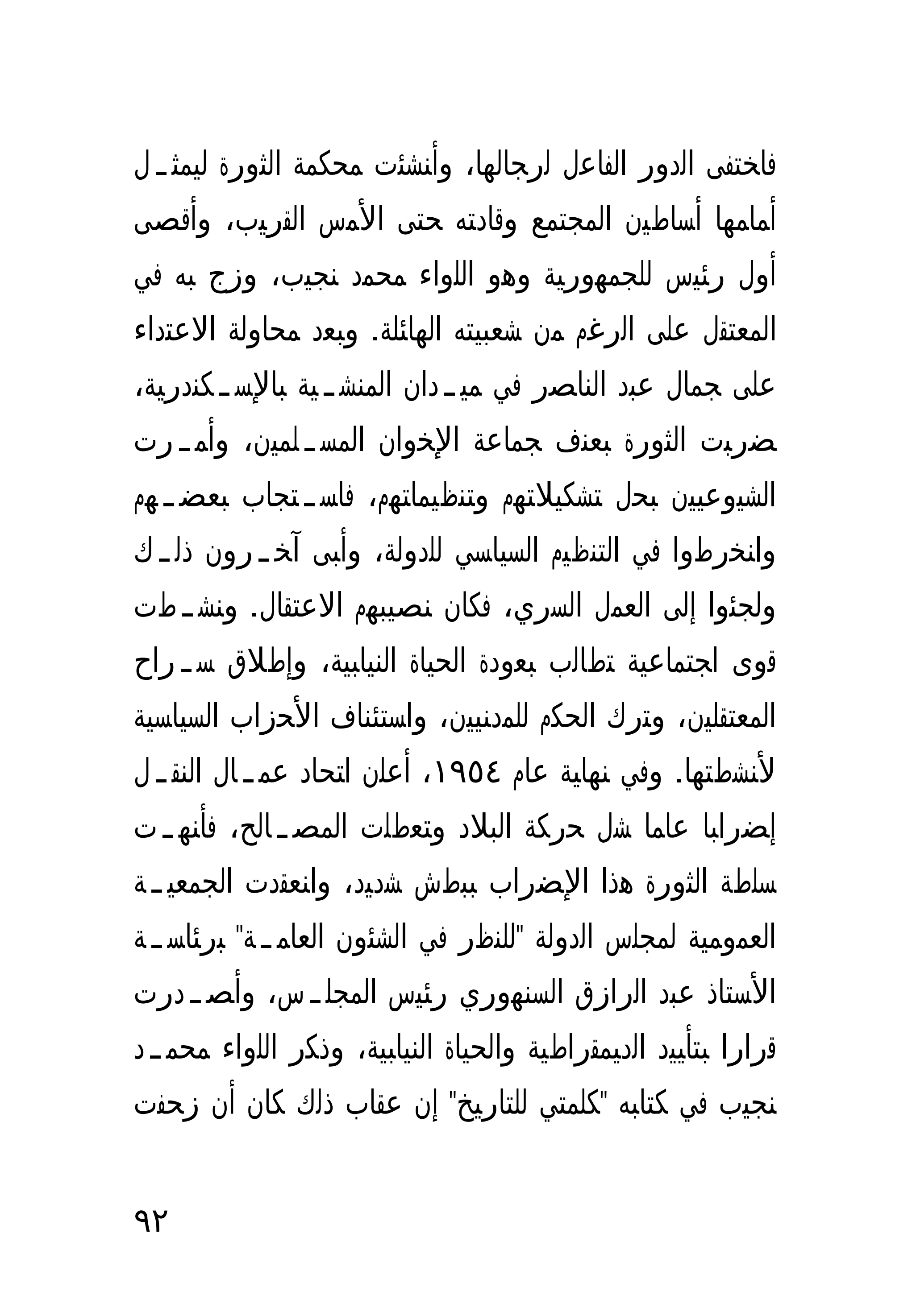
حكم جمال عبد الناصر مصر زمنًا طويلاً، كان أقلّه من وراء ستار، أما أكثره فقد تربع فيه منفردا على سدة الحكـم، في أكبر دولة عربية، وأعمقها تاريخًا، وأثراها تراثًا. وبعـد قليل من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وإلى وفاة عبـد الناصـر، اختفت من مصر الأحزاب السياسـية والانتخابـات النيابيـة الحرة، فلم تعرف مصر الحياة الحزبية أو الديمقراطية، وإنما ساد فيها الحاكم الفرد، والصوت الواحد، والتنظيم السياسـي الوحيد، والزعيم الأوحد.

وعلى الرغم من أن ثورة الثالث والعشرين من يوليـو ١٩٥٢ كانت تعبيرا عن طموح شديد إلى واقع جديد، بعد أن ضج الناس من ويلات واقعهم الذي عاشوه في ظـل الحكـم الملكي، إلا أن هذه الثورة –بعد قليل من قيامهـا- صـارت تجسيدا لإرادة شعبية عارمة في صنع حياة جديدة على هـذه الأرض الطيبة.

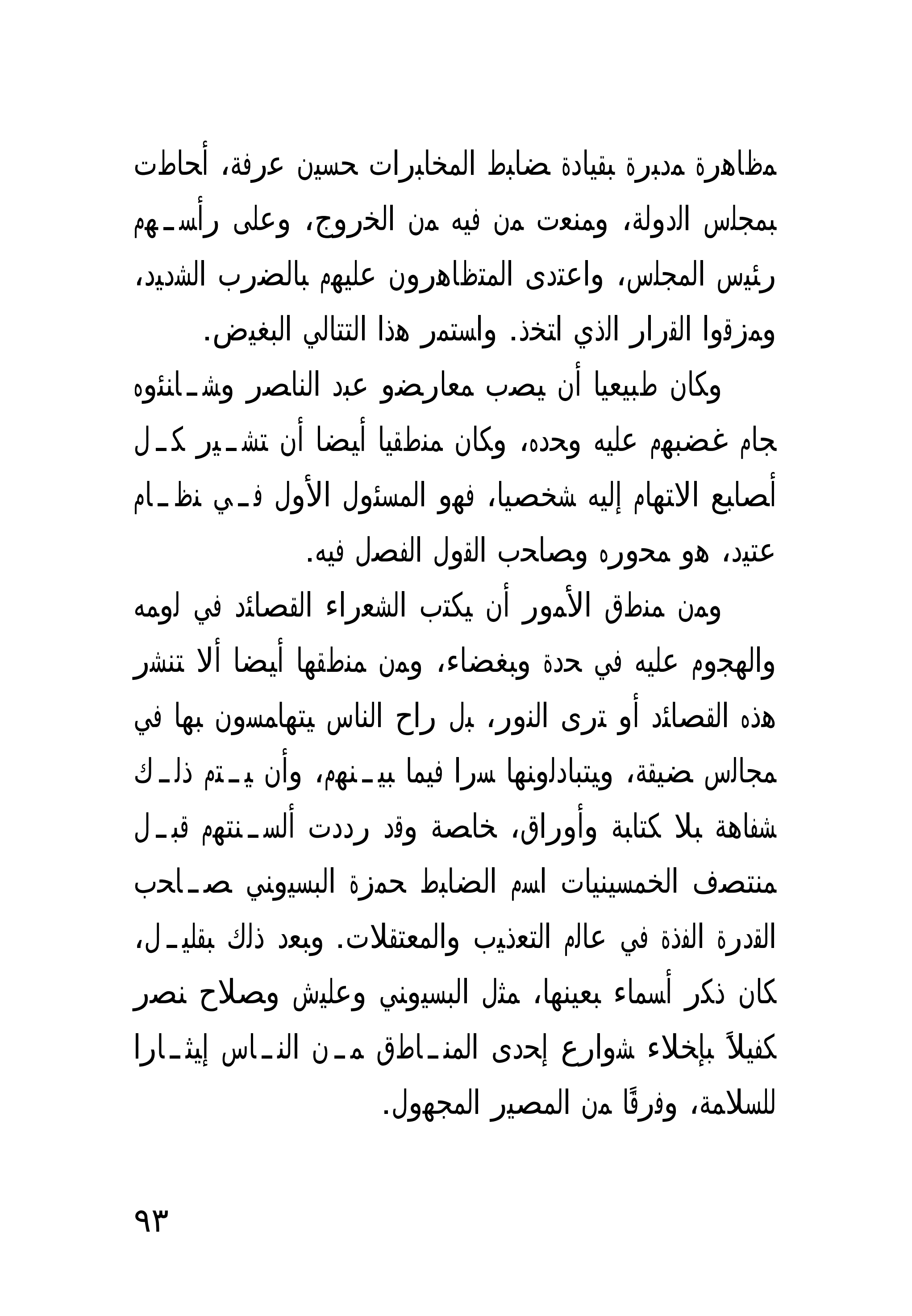
وبغض النظر عن أن هذه الإرادة الشعبية قـد تعـددت وتنوعت فيها المبادئ والمطامع والأهواء، إلا أنهـا جميعـا ساندت الثورة التي تحالفت مع كل قـوى المجتمـع تحالفًـا مرحليا، فالإخوان المسـلمون والشـيوعيون والعسـكريون

والسياسيون وغيرهم، قد أيدوا الثورة وأعانوها بهدف أن يصلوا إلى الحكم، وهكذا اندفعت الثورة إلى إعادة بناء المجتمع المصري، وتجديد تنظيمه الهيكلي على أسس جديدة. وكما اكتسبت الثورة مزيدا من الشعبية والتأييد مع كل خطوة من هذه الخطوات، فقد اكتسبت أيضا مزيدا من المعارضين والرافضين والمنشقين، وهؤلاء يمكن القول: إنهم في جملتهم من ضحايا الأفكار والقرارات والسياسات الجديدة.

لقد كان أول ما فكرت فيه ثورة يوليو بعد قيامها هو قانون الإصلاح الزراعي، فاكتسبت بذلك عداء كبار أثرياء المجتمع المصري الذين تمثلت ثروتهم في امتلاك الأراضي الزراعية الشاسعة. وبعد ذلك بشهرين فكرت الثورة في إصلاح نظام الإدارة الحكومية و"طرد الموظف الفاسد والمحظوظ والعاجز"، فكانت حركة التطهير التي تركت أصداء واسعة بعد أن أطاحت بموظفين كبارا ذوي هيبة وسلطان. وتتالت بعد ذلك الأحداث والقرارات في تتابع دراماتيكي حاد وعنيف، بحيث يشبه كل منها زلزالاً يقلب الأرض ظهرا لبطن، وأعلنت الجمهورية، فألغيت الملكية وتم القضاء على أعوانها، وكذلك ألغيت الأحزاب السياسية



فاختفى الدور الفاعل لرجالها، وأنشئت محكمة الثورة ليمثـل أمامها أساطين المجتمع وقادته حتى الأمس القريب، وأقصى أول رئيس للجمهورية وهو اللواء محمد نجيب، وزج به في المعتقل على الرغم من شعبيته الهائلة. وبعد محاولة الاعتداء على جمال عبد الناصر في ميـدان المنشـية بالإسـكندرية، ضربت الثورة بعنف جماعة الإخوان المسـلمين، وأمـرت الشيوعيين بحل تشكيلاتهم وتنظيماتهم، فاسـتجاب بعضـهم وانخرطوا في التنظيم السياسي للدولة، وأبى آخـرون ذلـك ولجئوا إلى العمل السري، فكان نصيبهم الاعتقال. ونشـطت قوى اجتماعية تطالب بعودة الحياة النيابية، وإطلاق سـراح المعتقلين، وترك الحكم للمدنيين، واستئناف الأحزاب السياسية لأنشطتها. وفي نهاية عام ١٩٥٤، أعلن اتحاد عمـال النقـل إضرابا عاما شل حركة البلاد وتعطلت المصـالح، فأنهـت سلطة الثورة هذا الإضراب ببطش شديد، وانعقدت الجمعيـة العمومية لمجلس الدولة "للنظر في الشئون العامـة" برئاسـة الأستاذ عبد الرازق السنهوري رئيس المجلـس، وأصـدرت قرارا بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية، وذكر اللواء محمـد نجيب في كتابه "كلمتي للتاريخ" إن عقاب ذلك كان أن زحفت



مظاهرة مدبرة بقيادة ضابط المخابرات حسين عرفة، أحاطت بمجلس الدولة، ومنعت من فيه من الخروج، وعلى رأسهم رئيس المجلس، واعتدى المتظاهرون عليهم بالضرب الشديد، ومزقوا القرار الذي اتخذ. واستمر هذا التتالي البغيض.

وكان طبيعيا أن يصب معارضو عبد الناصر وشانئوه جام غضبهم عليه وحده، وكان منطقيا أيضا أن تشير كل أصابع الاتهام إليه شخصيا، فهو المسئول الأول في نظام عتيد، هو محوره وصاحب القول الفصل فيه.

ومن منطق الأمور أن يكتب الشعراء القصائد في لومه والهجوم عليه في حدة وبغضاء، ومن منطقها أيضا ألا تنشر هذه القصائد أو ترى النور، بل راح الناس يتهامسون بها في مجالس ضيقة، ويتبادلونها سرا فيما بينهم، وأن يتم ذلك شفاهة بلا كتابة وأوراق، خاصة وقد رددت ألسنتهم قبل منتصف الخمسينيات اسم الضابط حمزة البسيوني صاحب القدرة الفذة في عالم التعذيب والمعتقلات. وبعد ذلك بقليل، كان ذكر أسماء بعينها، مثل البسيوني وعليش وصلاح نصر كفيلاً بإخلاء شوارع إحدى المناطق من الناس إيثارا للسلامة، وفرقًا من المصير المجهول.

لقد كان الباعث إلى كتابة هذه القصائد الاختلاف الكبير مع عبد الناصر السياسي الذي يتولى إدارة الأمـور، ولـيس للنظرة الأسطورية أو الثورية نصيب في ذلك؛ بل إن هـذه القصائد كانت تأكيدا على رفضها.

وتساقطت كثير من هذه القصائد من ذاكرة الزمن، بوفاة حامليها أو اختفائهم من حياتنا، وبقيت منها أبيات قليلة لـدى قليلين. ولقد بذلت جهدا كبيرا في محاولة جمع نصيب منها؛ لأنها تعبير عن الرأي الآخر الذي لم يكن متاحا له الظهـور الاجتماعي الشرعي.

فكتب الشاعر هاشم الرفاعي[1] يهاجم عبد الناصر عـام ١٩٥٦ حين بدأت شمس أسطورته تصعد إلى كبد السـماء، فقد رأى الشاعر أن عبد الناصر راح يمارس مع الشعب دور النخاس مع العبيد، فينزل بهم الذل والمهانة؛ لأنـه مـالكهم والمتحكم في رقابهم، وليس رئيسهم المنوط به إدارة شئونهم، فقال:

أنزل بهذا الشـعب كـل هـوان   وأعد عهـود الـرق للأذهـان
يا وارث الملك العريض منعمـا   وأبوك بين الناس لص أتـان[2]

لقد أنزل عبد الناصر العسف والهوان بالشـعب، حتـى أعاد إلى أذهان الناس صورة عهود الرق والعبوديـة التـي كانت في التاريخ القديم، وكأن عبد الناصر قـد ورث هـذا الملك العظيم الذي لا يطاول، فراح يتقلب في ألـوان النعـيم وكأنها حق مشروع له ورثه عن آلة الصيد، في حين أن أباه لم يورثه شيئًا من ذلك، وكعادة المصـريين فـي السـخرية الشديدة من حكامهم غمزه بأبيه.

وحين أنشأ عبد الناصر أول مجلس نيابي أسماه "مجلس الأمة"، نظر الشاعر حوله، فلم يجد انتخابات حرة، ولم يـر نوابا أكفاء، وتذكر ما تعلمه في دراسته لقصيدة أحمد شوقي في مناسبة الانتخابات البرلمانية بعد دسـتور ١٩٢٣، حـين قال:

البرلمـــان غـــدا يمـــد رواقـــه ... ظلاً على الـوادي السـعيد ظليـلاً

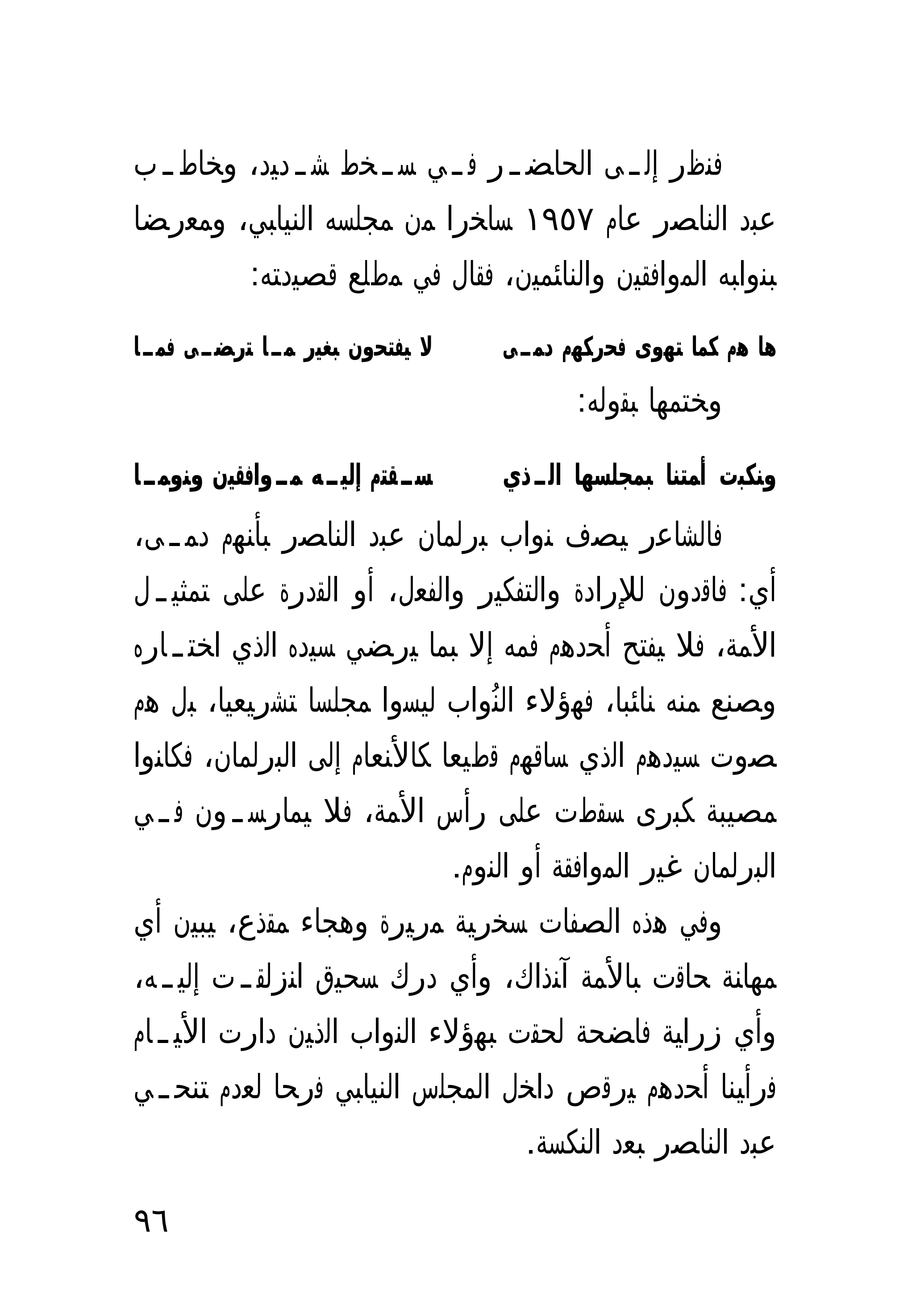
نرجـو إذا التعلـيم حـرك شـجوه ... ألا يكــون علــى الــبلاد بخـيلاً

ناشـــدتكم تلـــك الـــدماء زكيـــة ... لا تبعثــوا للبرلمــان جهــولا

فليســألن عــن الأرائــك ســائل ... أحملن فضـلاً أم حملـن فضـولا

إن أنــت أطلعــت الممثـل ناقصـا ... لـم تلـق عنـد كمالـه التمثـيلا

فادعوا لها أهـل الأمانـة واجعلـوا ... لأولي البصـائر مـنهم التفضـيلا



فنظر إلى الحاضر في سخط شديد، وخاطب عبد الناصر عام ١٩٥٧ ساخرا من مجلسه النيابي، ومعرضا بنوابه الموافقين والنائمين، فقال في مطلع قصيدته:

ها هم كما تهوى فحركهم دمى   لا يفتحون بغير ما ترضى فما

وختمها بقوله:

ونكبت أمتنا بمجلسها الذي   سقتم إليه موافقين ونوما

فالشاعر يصف نواب برلمان عبد الناصر بأنهم دمى، أي: فاقدون للإرادة والتفكير والفعل، أو القدرة على تمثيل الأمة، فلا يفتح أحدهم فمه إلا بما يرضي سيده الذي اختاره وصنع منه نائبا، فهؤلاء النُواب ليسوا مجلسا تشريعيا، بل هم صوت سيدهم الذي ساقهم قطيعا كالأنعام إلى البرلمان، فكانوا مصيبة كبرى سقطت على رأس الأمة، فلا يمارسون في البرلمان غير الموافقة أو النوم.

وفي هذه الصفات سخرية مريرة وهجاء مقذع، يبين أي مهانة حاقت بالأمة آنذاك، وأي درك سحيق انزلقت إليه، وأي زراية فاضحة لحقت بهؤلاء النواب الذين دارت الأيام فرأينا أحدهم يرقص داخل المجلس النيابي فرحا لعدم تنحي عبد الناصر بعد النكسة.

وكان الشاعر هاشم الرفاعي قد كتب في شهر مـارس ١٩٥٥ قصيدة شهيرة بعنوان "رسالة في ليلة التنفيذ"، نشرت بعد ذلك في ديوان "جراح مصر"، والقصيدة كأنهـا رسـالة بعثها الشاعر من أعماق السجن إلى أبيه ليلـة تنفيـذ حكـم الإعدام عليه، ومطلعها:

أَبتَاه مـاذا قَـد يخُـط بنـاِني — والحبـلُ والجـلاد منْتَظِـران

هذا الكِتاب إليـك مِـن زنْزانـةٍ — مقْرورةٍ صـخْريةِ الجـدران

لم تَبـقَ إلا ليلـةٌ أحيـا بهـا — وأُحِس أن ظلامهـا أكْفـاني

ستَمر يا أبتَاه –لستُ أَشُك فـي — هذا –وتحملُ بعدها جثمـاني

وراح الشاعر يصور ما يلاقيه السجين في زنازين ذلك العهد، لكنه يعبر أيضا عن ثورتـه الغاضـبة ضـد الظلـم والطغيان والتعذيب، مؤكدا أن لحظة اقتلاع الطغاة وتحطـيم الجبروت والسلطان آتية ولا ريب في ثـورة عاتيـة هـي الأقوى:

أنفاسك الحـرى وإن هـي أُخمِـدتْ — سـتظَل تَغْمـر أفْقَهـم بِـدخان

وقُروح جسمِك وهو تَحـتَ سِـياطهم — قَسـماتُ صـبحٍ يتقيـه الجـاني

دمع السـجين هنـاك فـي أغلالـه — ودم الشَـهيد هنـا سـيلتقيان

حتـى إذا مـا أُفعِمـت بِهمـا الربـا — لـم يبـقَ غيـر تَمـردِ الفَيضـان

ومن العواصِف مـا يكـون هبوبهـا — بعـد الهـدوءِ وراحـةِ الربـان

إن احتِدام النارِ فـي جـوفِ الثّـرى	أمـــر يثيـــر حفيظـــة البركـــان
وتَتَـــابع القَطْـــراتِ ينـــزلُ بعـــده	ســـيلٌ يليـــه تَـــدفقُ الطوفـــان
فَيمـــوج يقْتِلـــع الطّغـــاةَ مزمجـــرا	أقْـــوى مِـــن الجبـــروتِ والســـلْطَان

وكتب صلاح عبد الصبور قصيدته "عـودة ذي الوجـه الكئيب"[٤] يسخر فيها من عبـد الناصـر سـخرية شـديدة، ويصور فيها ما أوقعه بمصر من المآسي، وفي مطلعها يرسم صورة كاريكاتورية قبيحة للزعيم الذي نشر الأسى والخراب ولم ينعم في عهده سوى الدجال والقواد والقراد والحاوي، بعد أن ساد الإذلال والكذب والأسى:

هل عاد ذو الوجهِ الكئيب؟

ذو النظرة البكماء والأنف المقوس والندوب

هل عاد ذو الظفر الخَضيب

ذو المشيةِ التياهة الخيلاء تَنقر في الدروب

لَحنًا من الإذلال والكذب المرقش والنّعيب

ومدينتي معقودة الزنار

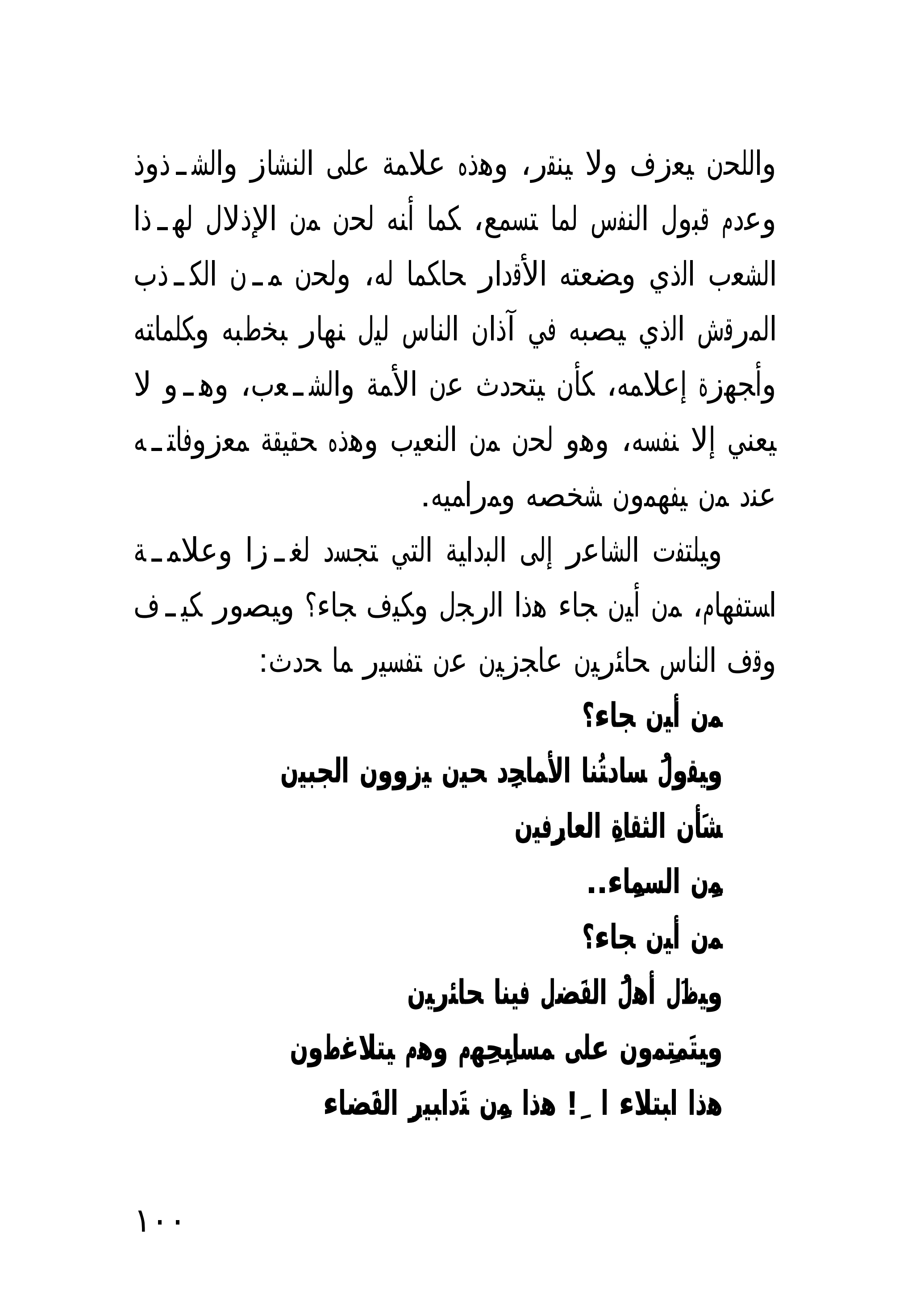
عمياء ترقُص في الظلامِ

ويصفر الدجال والقواد والحاوي الطروب

في عرس ذي الوجه الكئيب[٥]

لقد صور الشاعر عبد الناصر وقد عاد إلى المدينة بعد غياب، فأقيمت الأفراح احتفالاً بعودتـه. إذن فـنحن أمـام صورتين؛ صورة الرئيس العائد، وصورة المدينة المحتفلـة بعودته، أما عبد الناصر فله وجه كئيب لا تهش له القلـوب ولا تسعد به العيون، وله نظرة بكماء لا تفصـح ولا تبـين، وتلك كانت من صفاته، بحيث لا تكشف عما في باطنه، وله أنف طويل مقوس، وهذه من أشهر ملامحه، وفـي وجهـه ندوب علامات على القبح، فيا لَه من وجه قبيح منفر احتشدت فيه أمارات التنفير.

لكن عبد الناصر له ظفر خضيب، علامة على أن يديـه مخضبتان بدماء قـتلاه، وقـروح المعـذبين فـي سـجونه ومعتقلاته، ونزيف من افترستهم سياط جلاديه. ولـه أيضـا مشية تياهة خيلاء، شاهدا علـى الكبـر والغـرور، وعـدم الاكتراث بالناس، ودليلاً على أنه يرى نفسـه فـوق النـاس وليس معهم، وأنه عليهم وليس منهم، وهي مشية تمعن فـي الإذلال، وتزيد من العنت؛ ولذا فإنها تنقر في الدروب، فهـي ليس مشية محببة، وليس لوقعها صوت النغم، إنها تنقر، ففي اللفظة معنى الحدة والشدة والأثر الواضح، لكنها تنقر لحنًـا،



واللحن يعزف ولا ينقر، وهذه علامة على النشاز والشـذوذ وعدم قبول النفس لما تسمع، كما أنه لحن من الإذلال لهـذا الشعب الذي وضعته الأقدار حاكما له، ولحن مـن الكـذب المرقش الذي يصبه في آذان الناس ليل نهار بخطبه وكلماته وأجهزة إعلامه، كأن يتحدث عن الأمة والشـعب، وهـو لا يعني إلا نفسه، وهو لحن من النعيب وهذه حقيقة معزوفاتـه عند من يفهمون شخصه ومراميه.

ويلتفت الشاعر إلى البداية التي تجسد لغـزا وعلامـة استفهام، من أين جاء هذا الرجل وكيف جاء؟ ويصور كيـف وقف الناس حائرين عاجزين عن تفسير ما حدث:

من أين جاء؟

ويقولُ سادتُنا الأماجِد حين يزوون الجبين

شَأن الثقاةِ العارِفين

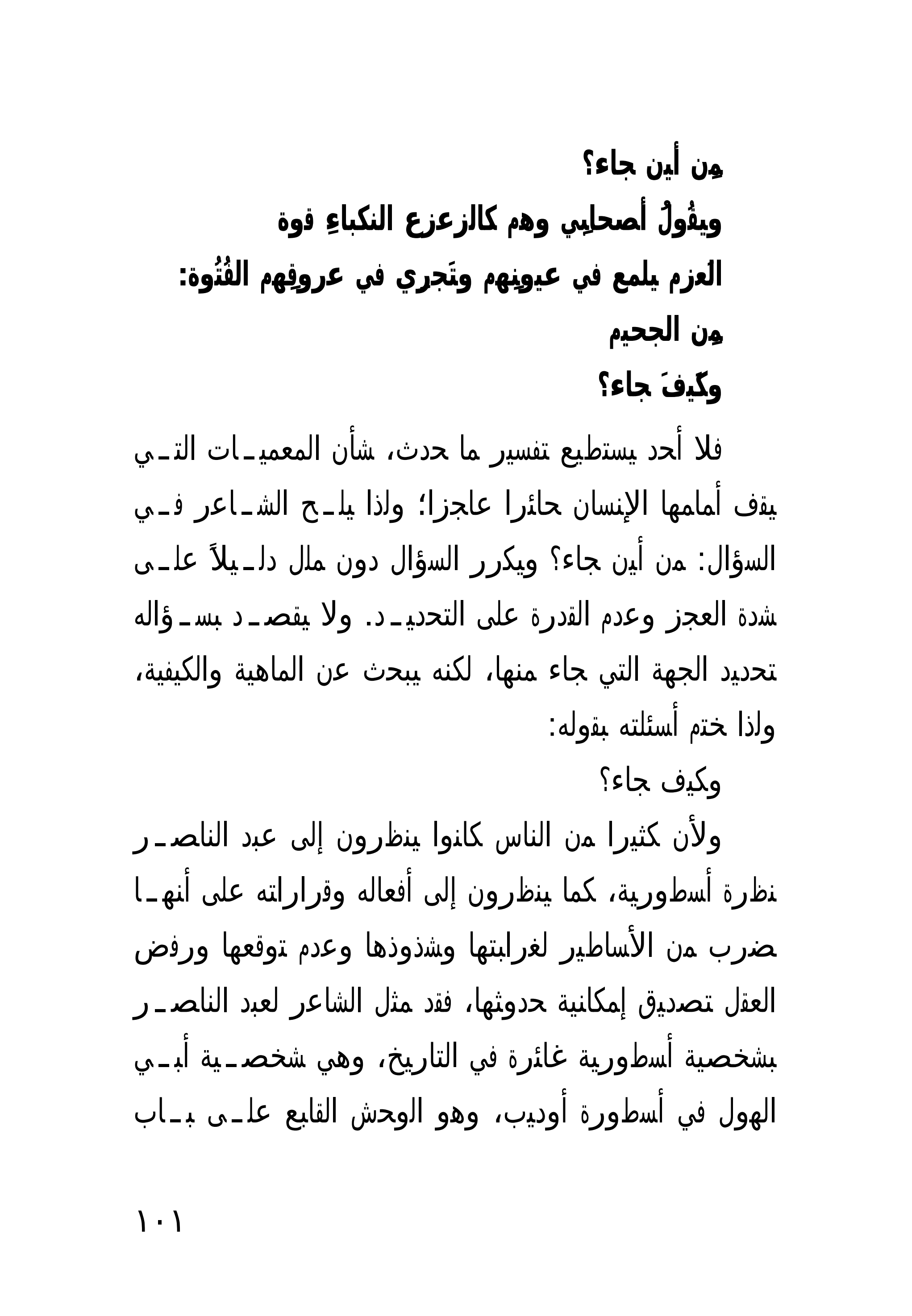
مِن السماء..

من أين جاء؟

ويظَل أهلُ الفَضل فينا حائرين

ويتَمتِمون على مسابِحِهم وهم يتلاغطون

هذا ابتلاء ا ـِ! هذا مِن تَدابير القَضاء



مِن أين جاء؟

ويقُولُ أصحابِي وهم كالزعزع النكباءِ قوة

العزم يلمع في عيونِهم وتَجري في عروقِهم الفُتُوة:

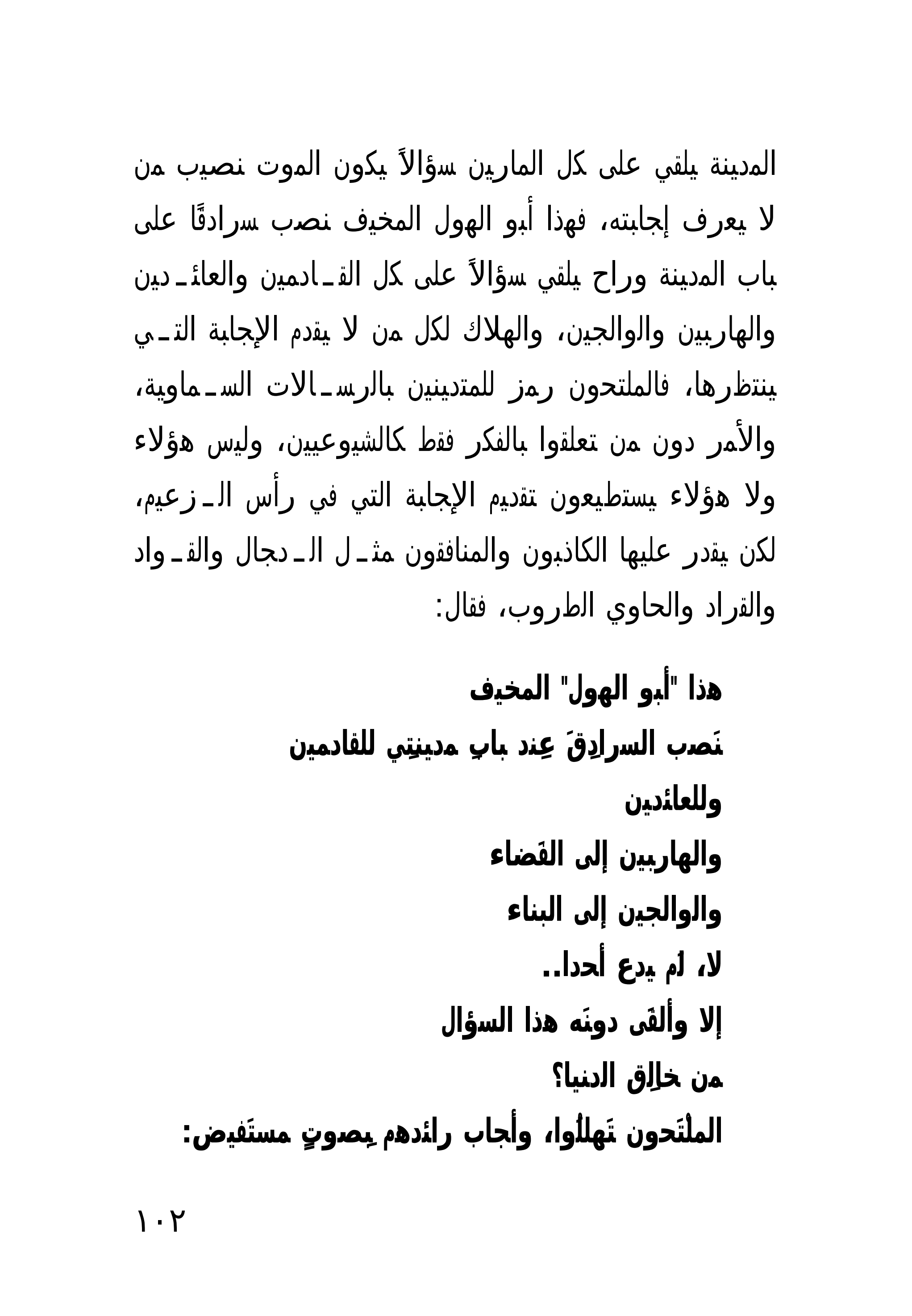
مِن الجحيم

وكَيفَ جاء؟

فلا أحد يستطيع تفسير ما حدث، شأن المعميات التي يقف أمامها الإنسان حائرا عاجزا؛ ولذا يلح الشاعر في السؤال: من أين جاء؟ ويكرر السؤال دون ملل دليلاً على شدة العجز وعدم القدرة على التحديد. ولا يقصد بسؤاله تحديد الجهة التي جاء منها، لكنه يبحث عن الماهية والكيفية، ولذا ختم أسئلته بقوله:

وكيف جاء؟

ولأن كثيرا من الناس كانوا ينظرون إلى عبد الناصر نظرة أسطورية، كما ينظرون إلى أفعاله وقراراته على أنها ضرب من الأساطير لغرابتها وشذوذها وعدم توقعها ورفض العقل تصديق إمكانية حدوثها، فقد مثل الشاعر لعبد الناصر بشخصية أسطورية غائرة في التاريخ، وهي شخصية أبي الهول في أسطورة أوديب، وهو الوحش القابع على باب



المدينة يلقي على كل المارين سؤالاً يكون الموت نصيب من لا يعرف إجابته، فهذا أبو الهول المخيف نصب سرادقًا على باب المدينة وراح يلقي سؤالاً على كل القـادمين والعائـدين والهاربين والوالجين، والهلاك لكل من لا يقدم الإجابة التـي ينتظرها، فالملتحون رمز للمتدينين بالرسـالات السـماوية، والأمر دون من تعلقوا بالفكر فقط كالشيوعيين، وليس هؤلاء ولا هؤلاء يستطيعون تقديم الإجابة التي في رأس الـزعيم، لكن يقدر عليها الكاذبون والمنافقون مثـل الـدجال والقـواد والقراد والحاوي الطروب، فقال:

هذا "أبو الهول" المخيف

نَصب السرادِقَ عِند بابِ مدينتِي للقادمين

وللعائدين

والهاربين إلى الفَضاء

والوالجين إلى البناء

لا، لم يدع أحدا..

إلا وألقَى دونَه هذا السؤال

من خالِق الدنيا؟

الملْتَحون تَهللُوا، وأجاب رائدهم بِصوتٍ مستَفيض:

ا   خالِقُها..! وهذا لا يصِح به سؤال

وعوى أبو الهول المخيف، وقَلب الوجه الكئيب إلى اليسار

ورمى بجميع الملتحين إلى الدمار

والأمردون تأملوا، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض:

لا نستطيع! بل نحن نعرف! إنه قِدم الطبيعة

وعوى أبو الهول المخيف، وقلب الوجه الكئيب إلى اليسار

ورمى بجمع الأمردين إلى الدمار

وتَقدم الدجال والقواد والقراد والحاوي الطروب

وتَضعضعوا! قالوا معاذك! أنتَ خالِقُها، أجل..

أنتَ الزمان

أنتَ المكان

أنت الذي كان

أنت الذي سيكون في آتي الأوان

وعوى أبو الهول وقلب الوجه الكئيب إلى اليمين

وأشار، ثم تواثبوا فوق الأرائك جالسين

لقد جلسوا إليه، فهؤلاء فقط أصحاب الحظوة والمكانـة في عهده الميمون، الدجال والقواد والقراد والحاوي الطروب؛ لذا قدموا له ما يرضيه، فرضي عنهم وأشار إليهم أن اجلسوا

على الأرائك ناعمين، لكنهم لم يتقدموا في هدوء العلماء، أو جلاء الأجلاء، أو وقار الأتقياء، وإنما تواثبوا كما يتفق مـع طبيعة القواد والقراد والحاوي. واسـتخدام الشـاعر للفعـل تواثبوا فيه ثراء يفضح طبائع الأشياء فاستخدام الفعـل بهـذا البناء دليل على الافتعال والتكلف ومشقة الأداء، وفي معنـى الفعل دليل على عدم معرفة أسلوب التصرف فـي حضـرة القادة، أو فيه إشارة إلى أنهم أقزام لا يرتقون الأرائـك فـي سهولة. لكنه في كل حال سلوك لا يقع في حضرة رئيس إلا إذا كانت الأمور قد بلغت حدا من الزراية لا يوصف.

وأخيرا يصل الشـاعر إلـى السـؤال الـلازم: كيـف الخلاص؟ فسيظل ذو الوجه الكئيب يصنع بنا البلاء إلـى أن يتغمدنا ا برحمته. إنها الموت ولا شيء غيره يخلصنا منه ويعيد البسمة إلى حياتنا:

سيظل ذو الوجه الكئيب وأنفه ونيوبه..

وخطاه تنقر في حوائطنا الخراب

إلا إذا

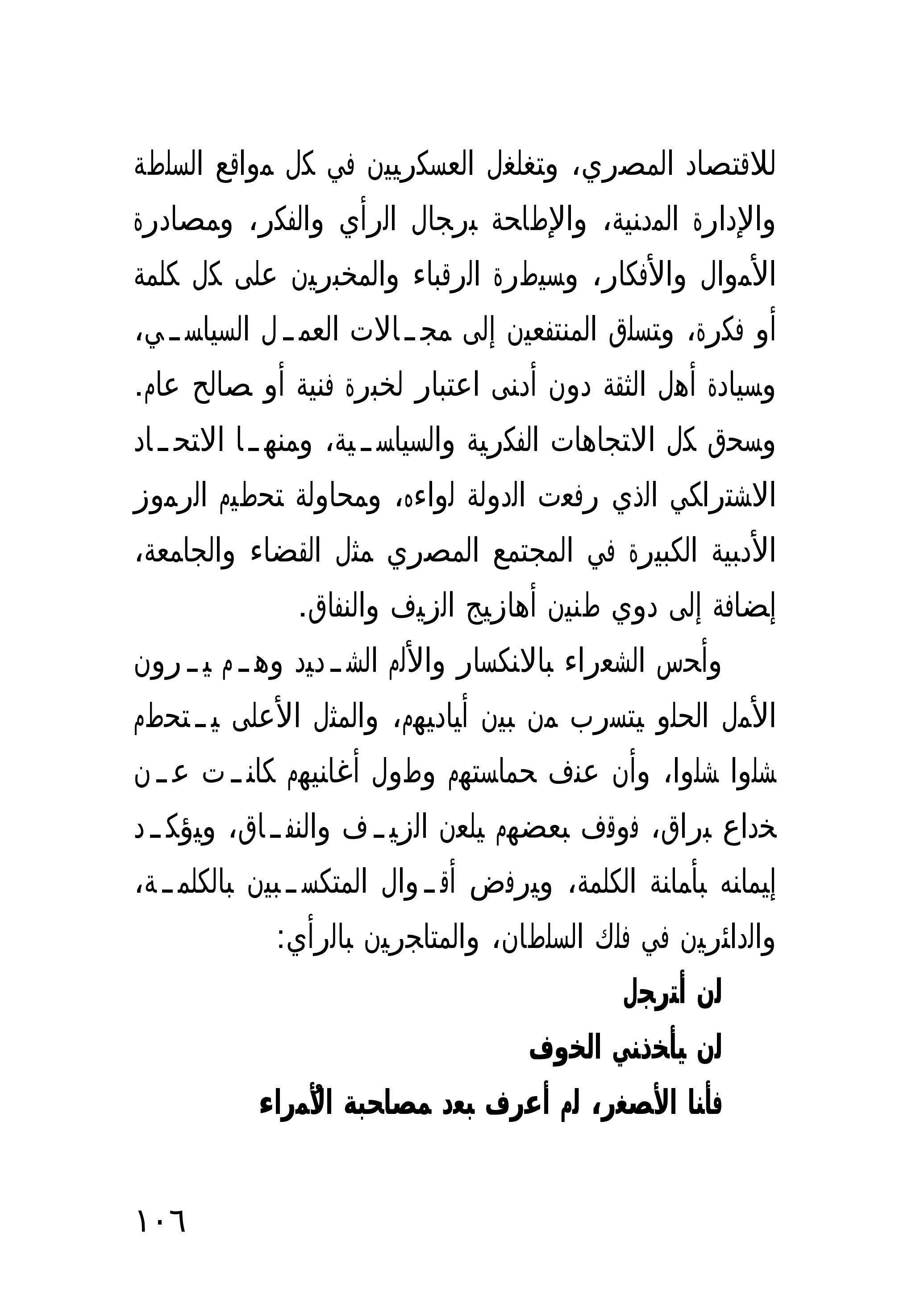
إلا إذا مات

سيموت ذو الوجه الكئيب

سيموت مختنقًا بما يلقيه من عفن على وجه السماء
في ذلك اليوم الحبيب
ومدينتي معقودة الزنار مبصرة سترقص في الضياء
في موت ذي الوجه الكئيب

لقد ازدادت ملامح الرئيس قبحا وبشاعة، فجعل له نيوبا فوق الوجه الكئيب والأنف المقوس، وجعل خطاه تنقـر فـي حوائطنا الخراب بدل أن كانت تنقر فـي الـدروب. وكلمـا ازدادت بشاعة الأشياء تطلع الناس إلى الخلاص منهـا، ولا قادر على تحقيق ذلك إلا ا ؛ لذا تمنى الشاعر لـه المـوت، فنحن أعجز من أن نتخلص منه، وقضاء ا أقـدر مـن أن يفلت منه الظالم. وحدد الشـاعر كيفيـة مـوت ذي الوجـه الكئيب، سيموت مختنقًا بما يلقيه من عفن، وهكذا ترد إليـه أعماله، ويجيء اليوم الحبيب إلى القلوب بعد طول غيـاب، فترقص مدينته في النور بشرا وسعادة.

ومنذ نهاية عام ١٩٦٤ تناهت إلى الأسماع أخبار حزينة عن تورط الجيش المصري في حرب اليمن، وعلى امتـداد أكثر من عامين تتالت همسات الناس عما يدور في السـجون والمعتقلات من تعذيب وإهدار لآدميـة الإنسـان، وخـراب



للاقتصاد المصري، وتغلغل العسكريين في كل مواقع السلطة والإدارة المدنية، والإطاحة برجال الرأي والفكر، ومصادرة الأموال والأفكار، وسيطرة الرقباء والمخبرين على كل كلمة أو فكرة، وتسلق المنتفعين إلى مجـالات العمـل السياسـي، وسيادة أهل الثقة دون أدنى اعتبار لخبرة فنية أو صالح عام. وسحق كل الاتجاهات الفكرية والسياسـية، ومنهـا الاتحـاد الاشتراكي الذي رفعت الدولة لواءه، ومحاولة تحطيم الرموز الأدبية الكبيرة في المجتمع المصري مثل القضاء والجامعة، إضافة إلى دوي طنين أهازيج الزيف والنفاق.

وأحس الشعراء بالانكسار والألم الشـديد وهـم يـرون الأمل الحلو يتسرب من بين أياديهم، والمثل الأعلى يـتحطم شلوا شلوا، وأن عنف حماستهم وطول أغانيهم كانـت عـن خداع براق، فوقف بعضهم يلعن الزيـف والنفـاق، ويؤكـد إيمانه بأمانة الكلمة، ويرفض أقـوال المتكسـبين بالكلمـة، والدائرين في فلك السلطان، والمتاجرين بالرأي:

لن أترجل

لن يأخذني الخوف

فأنا الأصغر، لم أعرف بعد مصاحبة الأمراء

لم أتعلم خُلُقَ النُدماء

لم أَبِع الكلمة بالذَهبِ اللألاء

ما جردتُ السيفَ على أصحابي، فرسان الكلمة

لم أخلع لقَب الفارس يوما

فَوقَ أميرٍ أبكَم[٦]

وشاعت نغمة الحزب الغامض فـي الشـعر، وأعنـي بغموضه أنه لم يكن ذا سبب واضح للعامـة، إضـافة إلـى اجترار الألم الحزين. وكانت قصائد ديوان "أقول لكم" للشاعر صلاح عبد الصبور تعبيرا مريرا ومتميزا عن الألم، فقد راح يعمق معنى الحزن والأسى إلى حد بعيد، يقول في قصـيدة "الشيء الحزين"[٧]:

هناك شيء في نفوسنا حزين

قد يختفي ولا يبين

لكنه مكنون

شيء غريب غامض.. حنون.

ويظل يبحث عن الشيء الحزين المتمكن في نفسه، فلا يجد غير الحيرة والعجز عن التحديد. وفي قصـيدته "الظـل والصليب" يؤمن الشاعر بأننا في زمن السأم الذي صنعه الألم

العظيم، فلا شيء ذا جدوى أو نفع، حتـى يلقـي بصـرخته المدوية "هذا زمن الحق الضائع" يقطع بها أننا قد أوشـكنا أن نغوص في الضياع التام؛ لأن ضياع الحق والحقيقـة يعنـي ضياع كل شيء:

هذا زمان الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتِله ومتى قتَله؟

ورءوس الناس على جثَثِ الحيوانات

ورءوس الحيواناتَ على جثَثِ الناس

فَتحسس رأسك

فَتحسس رأسك[8]

وأصدر محمد مهران السيد ديوانًا كاملاً كله قطع مـن الألم الحزين، يقول فيه:

الناس في بلادي يعبون الشجن

ويبادِلون الليلَ آهاتٍ تَطِن

موالهم أبدا يئِن

يستمرئ المأساة من أِلف وألف

ويسير فوق عيونِه السوداء كَف

يدعو أصابعها الزمن

حينًا.. وحينًا لا يراها غير أحكامِ القَدر[٩]

وراح عدد مـن الشـعراء يبـرزون مثالـب الواقـع الاجتماعي الحزين في محاولة لتنبيه وعي المجتمع وإيقاظه، ونفض السلبية عنه، ودفعه لإدراك مغزى ما يـدور حولـه. وتتضح قصائد أمل دنقل في ديوانه "البكاء بين يدي زرقـاء اليمامة" بكثير من الألم والحزن السـميك بعـد أن أظلمـت الرؤية، وتحطم المثل الأعلى، وراح يفتقد في مجتمعه كل ما كان يعتنقه من مبادئ. وكتب "بكائية ليلية" وهي قطعة مـن المرارة والألم الشديد، ليقول إننا نموت قبل أن نقاتل العـدو؛ لأننا لم نحدد أهدافنا بعد، فليس العدو فقط خارج الحدود، بل على أرض الوطن أعداء مثل دعاة الفرقة وبائعي الوهم؛ ولذا فإن الرصاصة الأولى ينبغي أن توجه إلى هنا قبل أن توجـه إلى هناك:

نتوه في القاهرة العجوز

ننسى الزمنا

نَفات من ضجيج سياراتِها وأُغنياتِ المتسولين

تُظِلنا محطة المِترو مع المساءِ.. متعبين

وكان يبكي وطنًا.. وكُنتُ أبكي وطنًا

نَبكي إلى أن تَنضب الأشعار
نَسألُها: أين خُطوط النار؟
وهل ترى الرصاصة الأولى هناك.. أم هنا؟[١٠]

وهكذا لمعت القصائد التي تعبر عن الحب الشديد والحزن القاتم، وتنتقد ما يدور في المجتمع، وتحذر الناس من مغبة الآتي، ومن سوء المصير، وسواد المنقلب. لكن من الحق أن نقول: إن ما كتبه الشعراء كان شيئًا شديد الضبابية والإغلاق بحيث لم يصل إلى الناس، فلم يكن الشاعر يستطيع الإفصاح أكثر، ولم يجد الناس في القصائد إلا الحزن القاتم. صحيح أن الخاصة كانوا يعرفون معنى الرسالة، لكن هيهات أن ينطق أحدهم.

ولقد أدرك المدافعون عن نظام الحكم معنى الرسالة، فاندفعوا يتصدون لها، وكتب الدكتور لويس عوض يدق أجراس الخطر لظهور طارئ جديد في حياتنا الأدبية، قائلاً: "أما الظاهرة العامة التي طرأت على الخلق الأدبي فهي اتجاه نحو الجهامة والتشاؤم"[١١]. ووصف المسرحيات الكوميدية الجديدة التي تستعين بالرمز وتتزيا بالتاريخ لتسقط على الواقع بأنها "الكوميديات السوداء".

ووصف هذا الأدب الحزين الذي ينبـه إلـى نقـائص المجتمع بـ "الأدب المتشائم" وتساءل متعجبا: "فإن لم يكـن هذا تشاؤما فلست أدري ماذا يكون التشاؤم؟" وعلى الرغم من الأوصاف الحادة التي استخدمها الدكتور لويس عوض إلا أنه دافع عن حرية التعبير، وطالب بدراسة هذه الظاهرة في كل أنواع الأدب بعد أن سرت على مدى عامين.

وذهب الأستاذ محمود أمين العالم إلـى أن مثـل هـذه الإبداعات "قد تبذر البذور السامة في حقول النقاء الثوري"(١٢)

وأنها "خطر على حياتنا الثورية الراهنة"(١٣)وبلغ الأمـر حد التنديد بها؛ لأنها عمل معادٍ للثورة والنظام القائم.

وكتب أمير إسكندر في جريدة الجمهورية(١٤) يقول: "لا أحد يتصور أن فكرة الشعب المشلول المقهـور المضـطهد الذي تتحكم فيه عصبة من اللصوص والمرتزقـة والأفـاقين يمكن أن تكون الصورة الموجودة بعد الثورة".

وهكذا راح عدد من الكتاب والنقاد يصدرون البيانـات السياسية السافرة باسم النقد الأدبـي، ويسـتعدون السـلطة السياسية ضد الأدباء، ويصفون أعمالهم بـالثورة المضـادة،

بسبب جريمة الأدباء في الاهتمام بالظواهر السلبية في المجتمع، وشيوع الحزن والقتامة في إبداعاتهم.

وليس من شك في أن ظاهرة الحزن القاتم كانت تعبيرا عن العجز والانسحاق، وضياع الأمل الحلو، بعد أن بدأت الحقائق تتكشف، وأدرك الشعراء كم كانوا مخدوعين في أمانيهم وأحلامهم. عاشوا بوعي مستلب، طالما ظنوه مدركًا لحقائق الأمور، وتغنوا بمثال هو والهم سواء، وعشقوا فاتنة لم تكن أكثر من سراب خادع، وكان لابد أن يصاحب الحزن إحساس بالعجز والقصور. ولكن ظهر من هؤلاء الشعراء من تقدم خطوة أو خطوات إلى الأمام، وتجاوز الألم وإبراز المثالب إلى التحذير من سوء العاقبة ومغبة القادم، فهذا أمل دنقل يحذر في ألم عظيم منذرا بالآتي الأسود:

ويكوم عام تَحترِقُ السنابِلُ والضروع

تنمو حوافِرنا مع اللعنات من ظَمأ وجوع

يِتزاحفُ الأطفالُ في لَعق الثرى

ينمو صديد الصمغ في الأفواه

في هدب العيون، فلا تَرى

تَتساقط الأقراطُ من آذان عذراوات مِصر

ويموت ثدي الأم.. تنهض في الكرى
تطهو على نيرانها الطفلَ الرضيع[15]

ومن المؤكد أن هذه القصائد كانـت تمثـل لونـًا مـن المعارضة السياسية الواضحة، وإن كانت في دوائر ضـيقة أول الأمر، ولم تشر مباشرة إلى شخص الـرئيس ونظامـه، لكنها تحت وطأة المحاذير الكثيرة نجحت في أن ترفع صوتًا وتعلن رأيا.

ووقعت النكسة حدثًا فارقًا في حياة عبـد الناصـر؛ إذ اندفع كثيرون إلى رفع أصواتهم، وسالت الأقـلام بالكتابـة، وعلى الرغم من هذا فإن ما نشر كـان القليـل، ومنـه أن الشاعر (حسين عرب) كتب قصيدة طويلة تقرب من ثلاثمائة بيت، أسماها "نكبة حزيران" سرد فيه قصة الهزيمـة، لكنـه صب جام غضبه على الزعيم، ووصفه بأنه ثـائر كـذاب، يعرف مدى الأكذوبة التي يروج لها، وأن ثورته كانت نقمة، فقد بطش بالشعب وهدده وأخافه، ونكل بالإخوان المسـلمين، وشتت الأمة العربية، وبث فيها الفرقة والبغضاء، فعاث فـي الأرض فسادا، وأنزل بنا الخراب:

فاســأل الثــائر عــن ثورتــه ... واســأل التــاريخ عمــن ثــأرا

أمِـن الإخـوان أم مِـن شَـعبِه ... أم علـى العـربِ تَمطّـى وازدرى
عاثَ في الأرضِ فسـادا، ومضـى ... يحصد الروض، ويورى الشجرا(١٦)

ورفض الشاعر كل ما ألصقته الشعوب العريقة بالزعيم من صفات العبقرية والعظمة، ورآه جاهلاً فارغًا لا يحسـن تقدير الأمور، وليس فيه كلمات ولا مواهب، بـل أكاذيـب وادعاء أجوف، وأن خمول الشعوب العربية قد مكـن لهـذا الدعي فصال وجال وطغى وتجبر:

جاهِـل أصـبح فينـا رائـدا ... وجبـان راح يحكـي عنتـرا
ركِـب المجـد علـى أعناقنـا ... ثُـم أرغَـى مزبِـدا مفْتَخِـرا
حال فِرعونا، فلمـا لـم يجِـد ... منكِـرا، صـار إلاهـا أكبـرا
داعيـا باسـمِ الجمـاهير ولا ... مِن جماهير، ولا مـن جمهـرا[١٧]

ففي هذه الأبيات سب مقذع، فقد وصف الزعيم بالجاهل والجبان، وفرعون والإله الأكبر وغيرها، مما يدل على سواد الشحنة التي تملأ نفس الشاعر، وعلى خروج القصيدة عـن طبيعتها لكونها عملاً فنيا، إلى أداء أقسى من الهجـاء، لكـن هذه القصيدة ومثيلاتها دليل أكيد على بعـد أثـر قـرارات وسياسات عبد الناصر في النفوس إلى درجة بلغت بـبعض

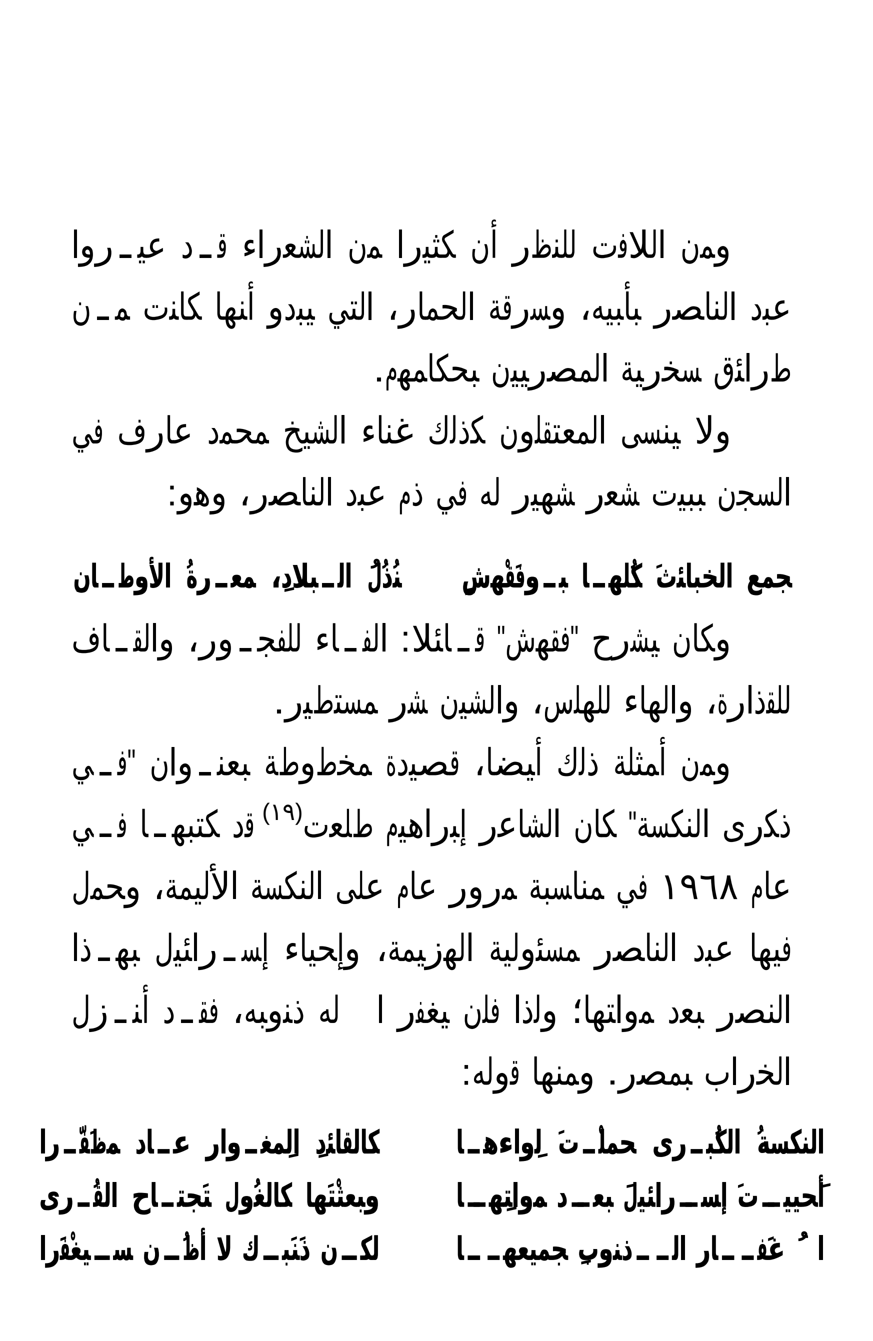
الناس هذا المدى البعيد من السباب، وأثر في الصناعة الفنية للقصيدة فابتعد بها عن الشعر، واقترب كثيرا من حافة النظم.

لقد أغرت هذا الشاعر وغيره أمانيهم بما سيؤول إليه حال عبد الناصر بعد النكسة من الضعف والمهانة، بحيث وجدوا في أنفسهم الجرأة على كتابة مثل هذه القصائد التي اندفع إليها كل أصحاب المرارة الشخصية من عبد الناصر من سياسيين وإخوان مسلمين وغيرهم، فقد ظنوه يوشك أن يلفظ أنفاسه.

ومن أمثلة ذلك القصائد الكثيرة التي كتبها الشعراء عام ١٩٦٨ في معتقل طره السياسي، حيث كانت كل القوى والاتجاهات والديانات ممثلة في هذا المعتقل، ومنهم عدد كبير من الشعراء، حتى كان هناك مكان مخصص في السجن يسمى "عنبر الشعراء" ويذكر المعتقلون كيف أنشدهم الشيخ محمد عارف –أحد علماء الأزهر- قصيدة طويلة في ذم عبد الناصر، وقد حفظوا أبياتها؛ لجمال إيقاعها، وسهولة ألفاظها، ومنها قوله:

أتذكر إذْ أبوك يقول شَنطَه … ويمشي في البلاد يقُولُ: بوسطَه

وقد سرق الحِمار بذات ليلٍ … لما سرقَتْ كلاب الحي بطه[18]



ومن اللافت للنظر أن كثيرا من الشعراء قد عيروا عبد الناصر بأبيه، وسرقة الحمار، التي يبدو أنها كانت من طرائق سخرية المصريين بحكامهم.

ولا ينسى المعتقلون كذلك غناء الشيخ محمد عارف في السجن ببيت شعر شهير له في ذم عبد الناصر، وهو:

جمع الخبائثَ كُلها بـوفَقْهش   نُذُلُّ البلادِ، معرةُ الأوطان

وكان يشرح "فقهش" قائلا: الفاء للفجور، والقاف للقذارة، والهاء للهاس، والشين شر مستطير.

ومن أمثلة ذلك أيضا، قصيدة مخطوطة بعنوان "في ذكرى النكسة" كان الشاعر إبراهيم طلعت[١٩] قد كتبها في عام ١٩٦٨ في مناسبة مرور عام على النكسة الأليمة، وحمل فيها عبد الناصر مسئولية الهزيمة، وإحياء إسرائيل بهذا النصر بعد مواتها؛ ولذا فلن يغفر ا   له ذنوبه، فقد أنزل الخراب بمصر. ومنها قوله:

النكسةُ الكُبرى حملْتَ لِواءها   كالقائدِ المغوار عاد مظفّرا

أَحييتَ إسرائيلَ بعد مواتِها   وبعثْتَها كالغُول تَجتاح القُرى

ا ُ غَفار الذنوبِ جميعها   لكن ذَنَبك لا أظُن سيغْفَرا

يا ويح مصر وقد مشيتَ بِروضـها فمحوتَ يابس غُصـنِها والأخضـرا

يا بـؤس للتـاريخ كيـف تَفتحـت صفحاتُه لِتَكون فيها أسـطُرا[٢٠]

وهذه الأبيات الخمسة كانت جزءا من قصيدة تقـع فـي عشرين بيتا، ظل الناس يتداولونها إلى وفاة عبـد الناصـر، وبعد ذلك نشأت حملة سياسية منظمة تهدف إلى النيـل مـن الزعيم ومؤيديه، وأطلقت شائعات كثيرة، كما ظهرت كتابات عديدة تبرز المثالب، وتوجه النقد العنيف، إضافة إلـى فـتح الباب واسعا أمام كل ما هو ضد الناصرية. وقد كشفت تلـك الحملة عن كثير من الجوانب المظلمة التـي كـان يجهلهـا الناس، فاستجاب لها قطاع من الجماهير، كما أنهـا أتاحـت الفرصة لقطاع آخر أن يراجع مواقفه السابقة، خاصة بعد أن كتب الدكتور إبراهيم عبده "رسائل من نِفاقِسـتان"، وكتـب توفيق الحكيم "عودة الوعي"، وظهرت قصائد تهاجم الـزعيم أو تلومه وتندد بسياسته، خاصة في جانبي الحرية وحقـوق الإنسان. ومنها قصائد صدرت عن مواقف عقلية، مثل قـول حامد نفادي:

إياك أن تطلب منا أن نَثور

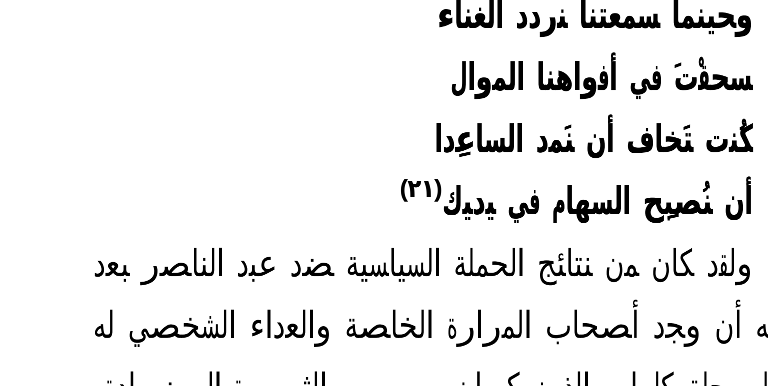
فهذه الأمور غير ما عودتنا

علمتنا الطاعة والمهانة

وأننا لابد أن نَخاف

كُنت وحدك المغَني

ونحن وحدنا المصفقين



وحينما سمعتنا نردد الغناء

سحقْتَ في أفواهنا الموال

كُنت تَخاف أن نَمد الساعِدا

أن نُصبِح السهام في يديك[٢١]

ولقد كان من نتائج الحملة السياسية ضد عبد الناصر بعد وفاته أن وجد أصحاب المرارة الخاصة والعداء الشخصي له أو للمرحلة كلها، والذين كـان يسـميهم الثـورة المضـادة، والمنافقون، وجد كل هؤلاء الفرصة مواتية تماما كي يطلـوا بوجوههم على الساحة من جديد؛ طمعا فـي دور جديـد، أو أملاً في تصفية حساباتهم ضد الماضي، أو رغبة في التشفي والانتقام. وكان من أبرز هـؤلاء بقايـا جماعـة الإخـوان المسلمين الذين أحمد عبد الناصر أنفاسهم وكمم أفواههم أكثر من خمسة عشر عاما، فترك في نفوسهم جروحا غائرة. وإذ سمح النظام السياسي لكل هؤلاء بـالتعبير طفقـوا يقـذفون الزعيم بكل ألوان التهم، ونشروا كثيرا من القصائد بأسـماء

مستعارة، فذاعت كثير من القصائد التي لا يعرف الناس اسم كاتبها، ومثال ذلك ما أشيع من كسر ماسورة المجاري عند مقبرة الزعيم، وأن المياه قد جرفت جثته، فذاعت قصيدة للشاعر أحمد فهمي الخطاب[٢٢] يقول فيها:

رأس الفسادِ تحطم وهوى بقاع جهنم
وانزاح كابوس على صدر العروبة خَيم
رفض الثرى جثمانَه وأبى الخَرى وتعظم[٢٣]

واستثار البيت الأخير شاعرية الأستاذ إبراهيم طلعت، فأدخل عليه تعديلاً وجعله صدرا لأشهر قصيدة بعد وفاة عبد الناصر أسماها: "المعلقة السوداء"، أدخل فيها قصيدته الأولى "في ذكرى النكسة"، وأضاف إليها كثيرا، وحاول فيها أن يصور الواقع الذي عاشته مصر حتى عام ١٩٧٠؛ حتى تليق بما كتب لها من ذيوع وانتشار لم تحظ بمثله قصيدة في الشعر العربي المعاصر، تتوارثها الأجيال القادمة كصورة صادقة للتاريخ الذي حاول من قيلت فيه القصيدة أن يزوره أو يمحوه"[٢٤].

ولم تنتشر قصيدة في العالم العربي كما انتشرت هذه القصيدة، وذاع صيتها وحفظها كثيرون وتناقلوها. "وقد

اختلاف الناس في أمر قائلها، فبعضهم نسـبها إلـى شـعراء انتقلوا إلى رحمة ا ، منهم المرحوم عزيز أباظـة، وزعـم بعضهم أن روح أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقي أملاها من العالم الآخر على وسيط أعده لذلك الدكتور رءوف عبيد العالم الروحاني، وآخرون نسبوها إلى أنفسهم"[٢٥]

وقد عارض الشاعر فيها قصيدتين من عيـون الشـعر العربي، الأولى قصيدة المتنبي في مدح ابن العميد، ومطلعها:

باد هواك صبرتَ أم لم تصـبرا وبكاك إن لم يجرِ دمعك أو جـرى

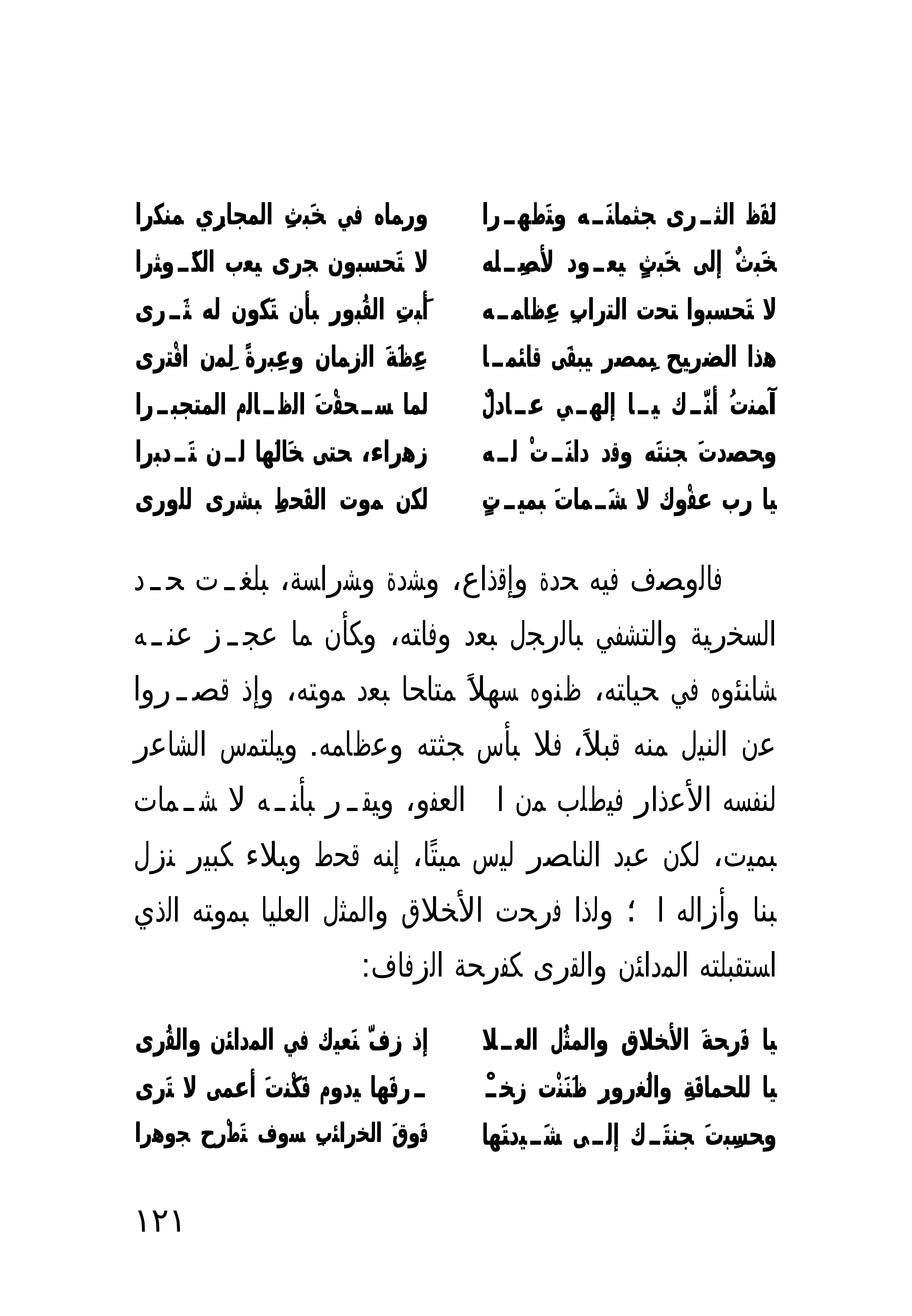
والثانية قصيدة أمير الشعراء في الأزهر، ومطلعها:

قُم في فَمِ الدنيا وحي الأزهـرا وانثُر على سمع الزمان الجوهرا

فضمن في قصيدته أشطرا وأبياتًا من هاتين القصيدتين، وكتب مطلعها:

لفَظَ الثـرى جثمانَـه وتَطَهـرا ورماه في خَبَثِ المجاري والخرا

وأشار الشاعر مرسي جميل عزيز باستبدال الكلمة الأخيرة لأنها تصدم السمع والحس الفني، على الرغم من أنها فصيحة، فاستبدلها الشاعر، وقسم معلقته إلى مقاطع بدأها بقوله[٢٦]:



لَفَظَ الثـرى جثمانَـه وتَطهـرا — ورماه في خَبَثِ المجاري منكرا

خَبَثٌ إلى خَبَثٍ يعـود لأصلِـه — لا تَحسبون جرى يعب الكَـوثرا

لا تَحسبوا تحت الترابِ عِظامـه — أبتِ القُبور بأن تَكون له ثَـرى

هذا الضريح بِمصر يبقَى قائمـا — عِظَةَ الزمان وعِبرةً لِمن افْترى

آمنتُ أنّـك يـا إلهـي عـادلٌ — لما سـحقْتَ الظـالم المتجبـرا

وحصدتَ جنتَه وقد دانَـتْ لـه — زهراء، حتى خَالَها لـن تَـدبرا

يا رب عفْوك لا شَـماتَ بميـتٍ — لكن موت القَحطِ بشرى للورى

فالوصف فيه حدة وإقذاع، وشدة وشراسة، بلغـت حـد السخرية والتشفي بالرجل بعد وفاته، وكأن ما عجـز عنـه شانئوه في حياته، ظنوه سهلاً متاحا بعد موته، وإذ قصـروا عن النيل منه قبلاً، فلا بأس جثته وعظامه. ويلتمس الشاعر لنفسه الأعذار فيطلب من ا   العفو، ويقـر بأنـه لا شـمات بميت، لكن عبد الناصر ليس ميتًا، إنه قحط وبلاء كبير نزل بنا وأزاله ا ؛ ولذا فرحت الأخلاق والمثل العليا بموته الذي استقبلته المدائن والقرى كفرحة الزفاف:

يا فَرحةَ الأخلاق والمثُل العـلا — إذ زفّ نَعيك في المدائن والقُرى

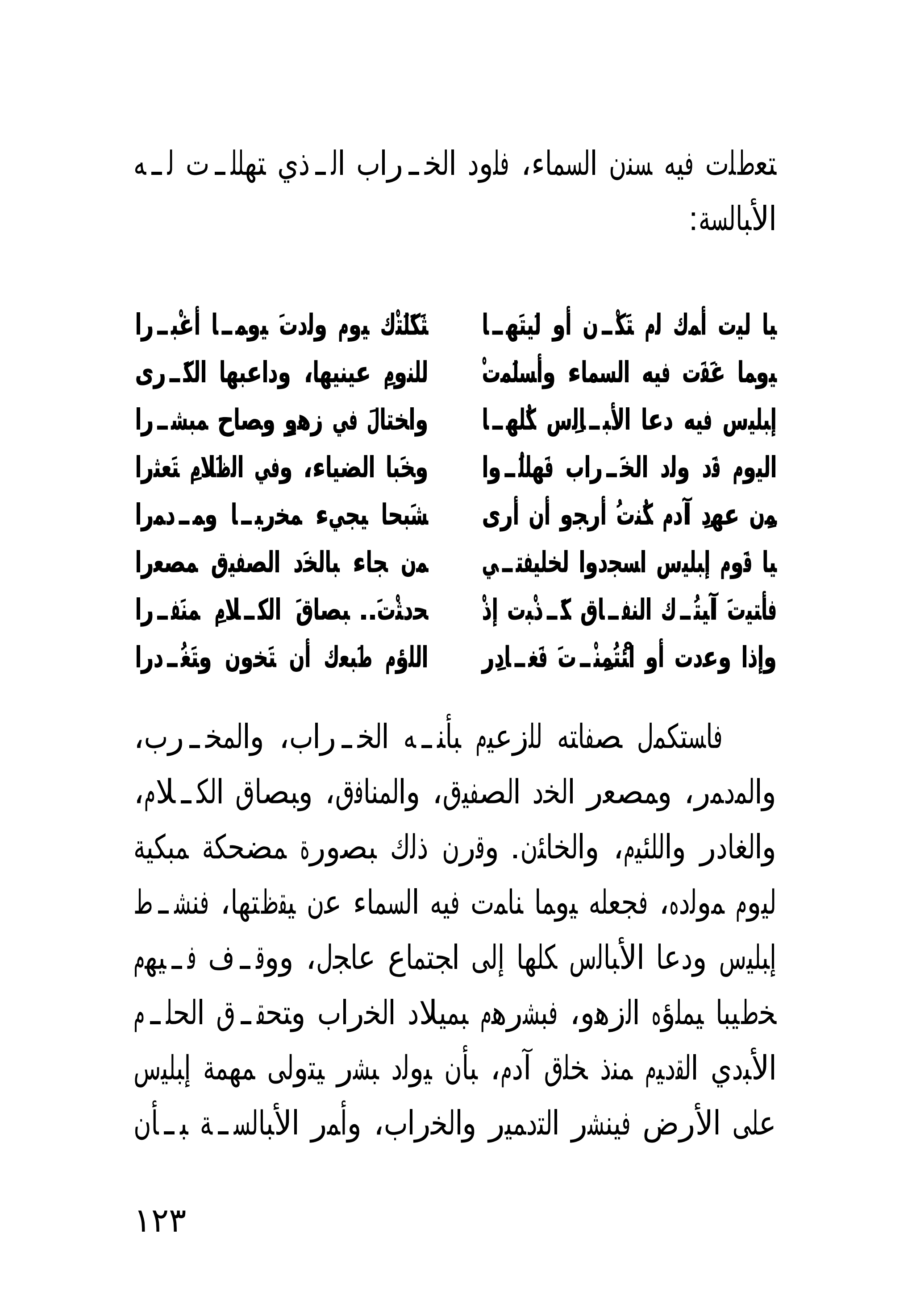
يا للحماقَةِ والغُرور ظنَنْت زخـْ — ـرفَها يدوم فَكُنتَ أعمى لا تَرى

وحسِبتَ جنتَـك إلـى شَـيدتَها — فَوقَ الخرائبِ سوف تَطْرح جوهرا

وهكذا بعد أن وصفه الشاعر بأنه خبيث من أصل خبيث، وظالم ومتجبر ومتكبر وقحط، عاد ووصفه بأنه أحمق ومغرور وأعمى، وأحال جنتنا إلى خرائب، واستكمل قائلاً:

قَدر رمى بِك مصر كالطاعون كالـ	طوفان، كالزلزال جاء مدمرا
حطمتَ أقدار الرجال بِخسةٍ	وجعلتهم سِلعا تُباع وتُشترَى
فأتاك من يسعى لإفكِك جاثيا	متخاذلاً مستجديا مستَوزرا
مِن كُلّ إمعةٍ غَبي جاهلٍ	يتلُو تَواريخَ الرجال مزورا
ويقولُ ما تهوى وينطِقُ ما ترى	كالببغاء مرددا ومكررا
من باع في سوق النّفاق ضميره	ومشَى على الذّهبِ الذليل مبخترا

فوصف الزعيم بأنه كالطاعون، والطوفان، والزلزال المدمر، ورماه بالخسة، وأما من يحيطون به فهم: المتخاذل، والمستجدي، والمستوزر، والإمعة والغبي، والجاهل، والببغاء، والمنافق، وبائع ضميره، وفي ذلك مزيد الشدة والإقذاع، وجنوح عن جادة الصواب، وإبراز لموقف شخصي بالغ السواد، ولجاجة في الخصومة إلى مدى بعيد. واشتط الشاعر في غلوائه، فوصف يوم ميلاد الزعيم بأنه يوم



تعطلت فيه سنن السماء، فلود الخـراب الـذي تهللـت لـه الأبالسة:

يا ليت أمك لم تكُـن أو ليتهـا ... ثكلتْك يوم ولدتَ يومـا أغبـرا

يوما غفَت فيه السماء وأسلمتْ ... للنومِ عينيها، وداعبها الكـرى

إبليس فيه دعا الأبـالِس كُلهـا ... واختالَ في زهوٍ وصاح مبشـرا

اليوم قد ولد الخَـراب فهللـوا ... وخَبا الضياء، وفي الظلامِ تعثرا

مِن عهدِ آدم كُنتُ أرجو أن أرى ... شَبحا يجيء مخربـا ومـدمرا

يا قوم إبليس اسجدوا لخليفتـي ... من جاء بالخَد الصفيق مصعرا

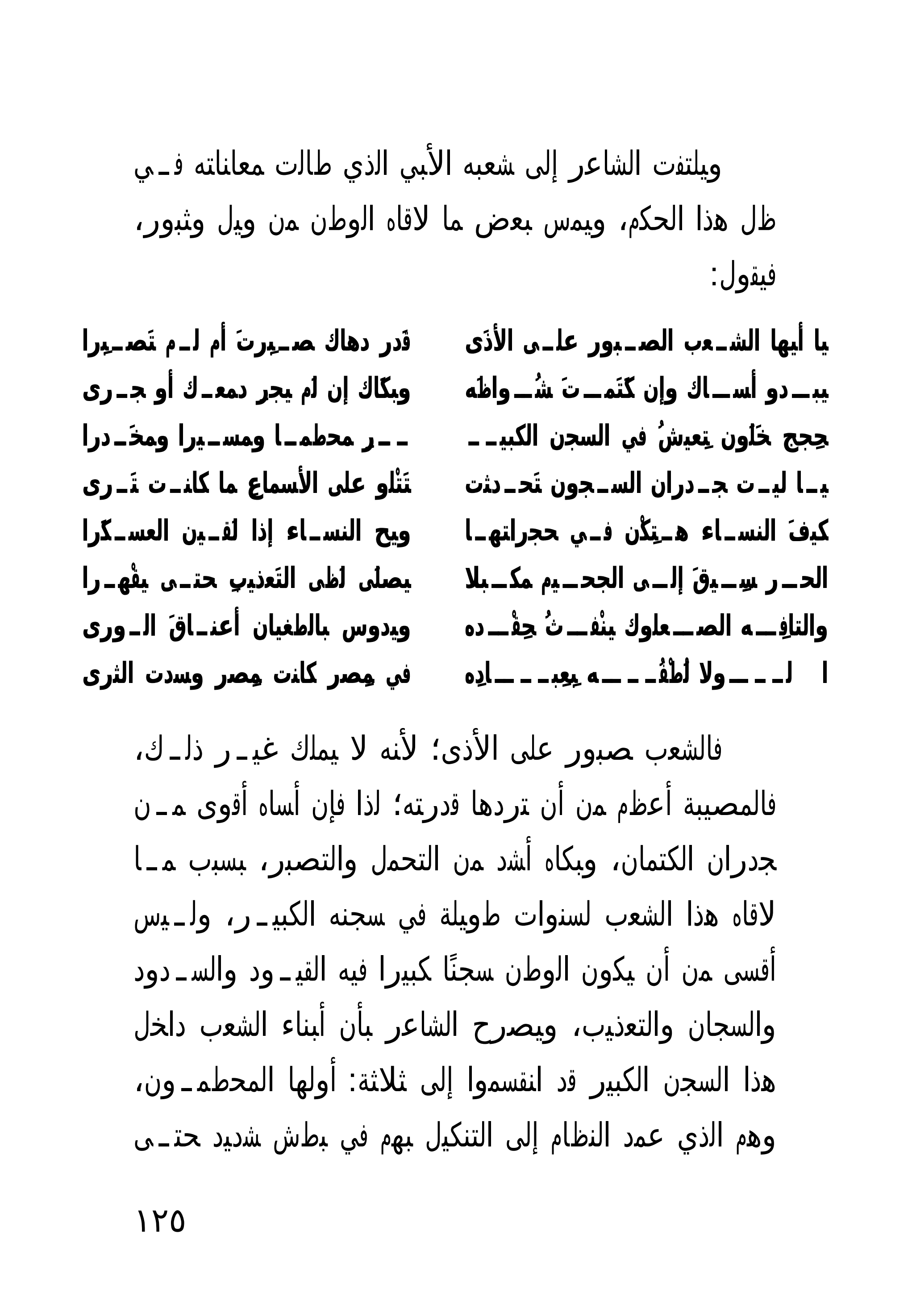
فأتيتَ آيتُـك النفـاق كـذبت إذْ ... حدثْتَ.. بصاقَ الكـلامِ منفـرا

وإذا وعدت أو ائتُمِنْـتَ فغـادِر ... اللؤم طبعك أن تخون وتغـدرا

فاستكمل صفاته للزعيم بأنـه الخـراب، والمخـرب، والمدمر، ومصعر الخد الصفيق، والمنافق، وبصاق الكـلام، والغادر واللئيم، والخائن. وقرن ذلك بصورة مضحكة مبكية ليوم مولده، فجعله يوما نامت فيه السماء عن يقظتها، فنشـط إبليس ودعا الأبالس كلها إلى اجتماع عاجل، ووقـف فـيهم خطيبا يملؤه الزهو، فبشرهم بميلاد الخراب وتحقـق الحلـم الأبدي القديم منذ خلق آدم، بأن يولد بشر يتولى مهمة إبليس على الأرض فينشر التدمير والخراب، وأمر الأبالسـة بـأن

يسجدوا لخليفته الصفيق المتكبر، فعم الظلام وخبا الضـياء، وجاء الزعيم إلى الأرض آيتـه النفـاق والكـذب والغـدر والخيانة.

وهذه صورة ساخرة مريرة تعبـر عـن حقـد دفـين، وإبراهيم طلعت ذكر لي أنه كان قريبا من عبد الناصر فـي أول الثورة، وأنه رشح للوزارة التي لم تـأتِ لسـبب غيـر معلوم، لكنه اعتقل بعد ذلك غير مرة بسبب جموحه وعـدم ملاينته، لكن يبقى السؤال: كيف بلغ الشاعر هذه الدرجة من الغضب الأسود الذي حجب عنه كل لون غيـر ذلـك. لقـد اشتغل الشاعر بالسياسة منذ صباه، وكان أحد شباب حـزب الوفد اللامعين قبل الثورة، واختلف مع الوفد وعاد إليه، ثـم اختلف معه وعاد إليه، وبعد أن عاد الوفد الجديد إلى الظهور في ظل التعددية السياسية في أيام حكم الـرئيس السـادات، انضم الشاعر إلى الحزب وتحمس له، ثم ما لبث أن خـرج عليه، وفي ذلك ما يدل على جانب من طبيعة الشاعر، كمـا يشير إلى جانب من شكل علاقة الشاعر بالكيانات والأنظمـة السياسية.



ويلتفت الشاعر إلى شعبه الأبي الذي طالت معاناته فـي ظل هذا الحكم، ويمس بعض ما لاقاه الوطن من ويل وثبور، فيقول:

يا أيها الشـعب الصـبور علـى الأذى ... قَدر دهاك صـبرتَ أم لـم تَصـبرا

يبـدو أسـاك وإن كَتمـتَ شُـواظَه ... وبكاك إن لم يجر دمعـك أو جـرى

حِجج خَلَون يَعيشُ في السجن الكبيـ ... ـر محطمـا ومسـيرا ومخَـدرا

يـا ليـت جـدران السـجون تَحـدثت ... تَتْلو على الأسماع ما كانـت تَـرى

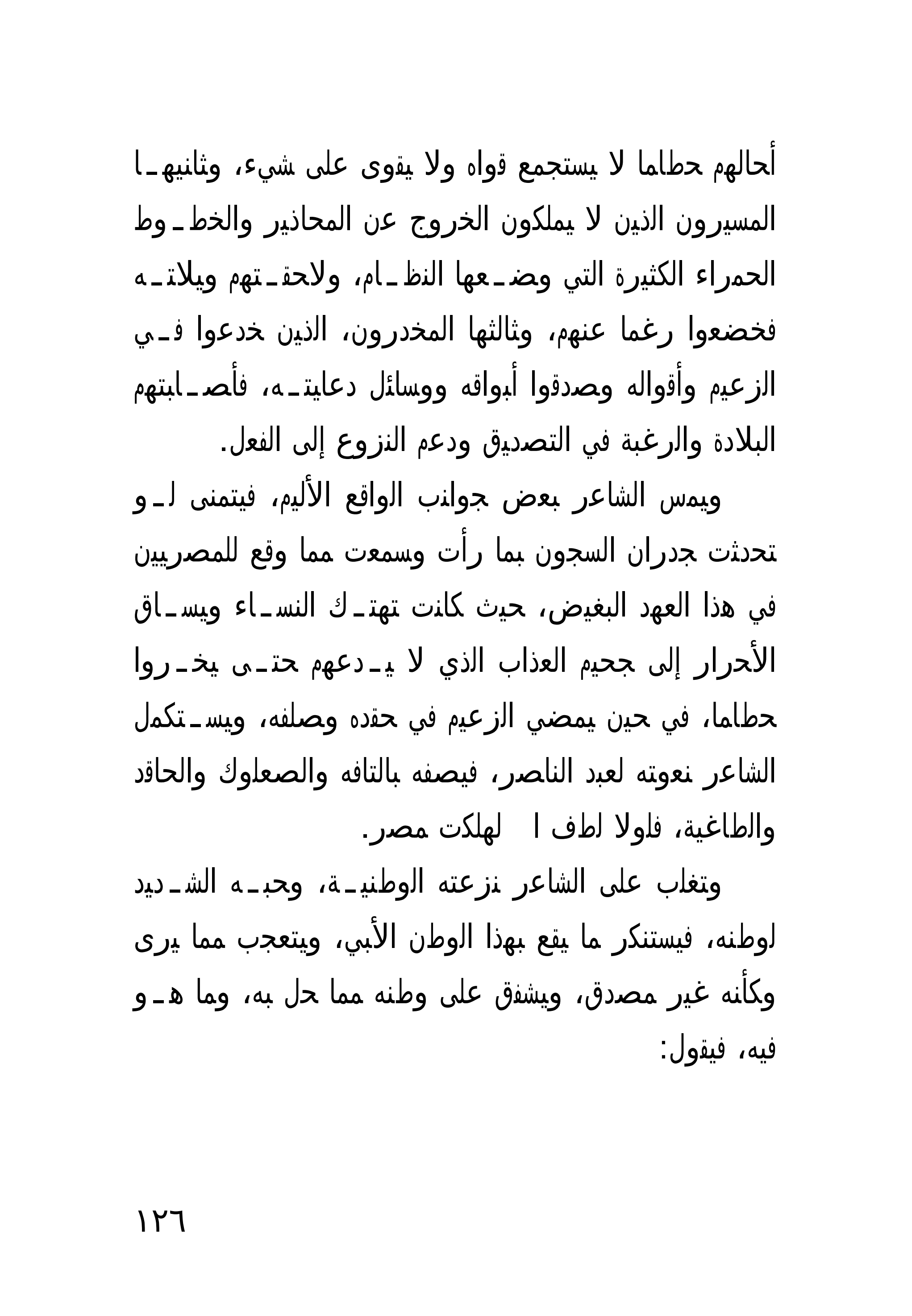
كيفَ النسـاء هـتِكْن فـي حجراتهـا ... ويح النسـاء إذا لقـين العسـكرا

الحـر سِـيقَ إلـى الجحـيم مكـبلا ... يصلى لظى التَعذيبِ حتـى يقْهـرا

والتافِـه الصـعلوك ينْفـثُ حِقْـده ... ويدوس بالطغيان أعنـاقَ الـورى

ا لـولا أُطْفُـه بِعِبـادِه ... في مصر كانت مصر وسدت الثرى

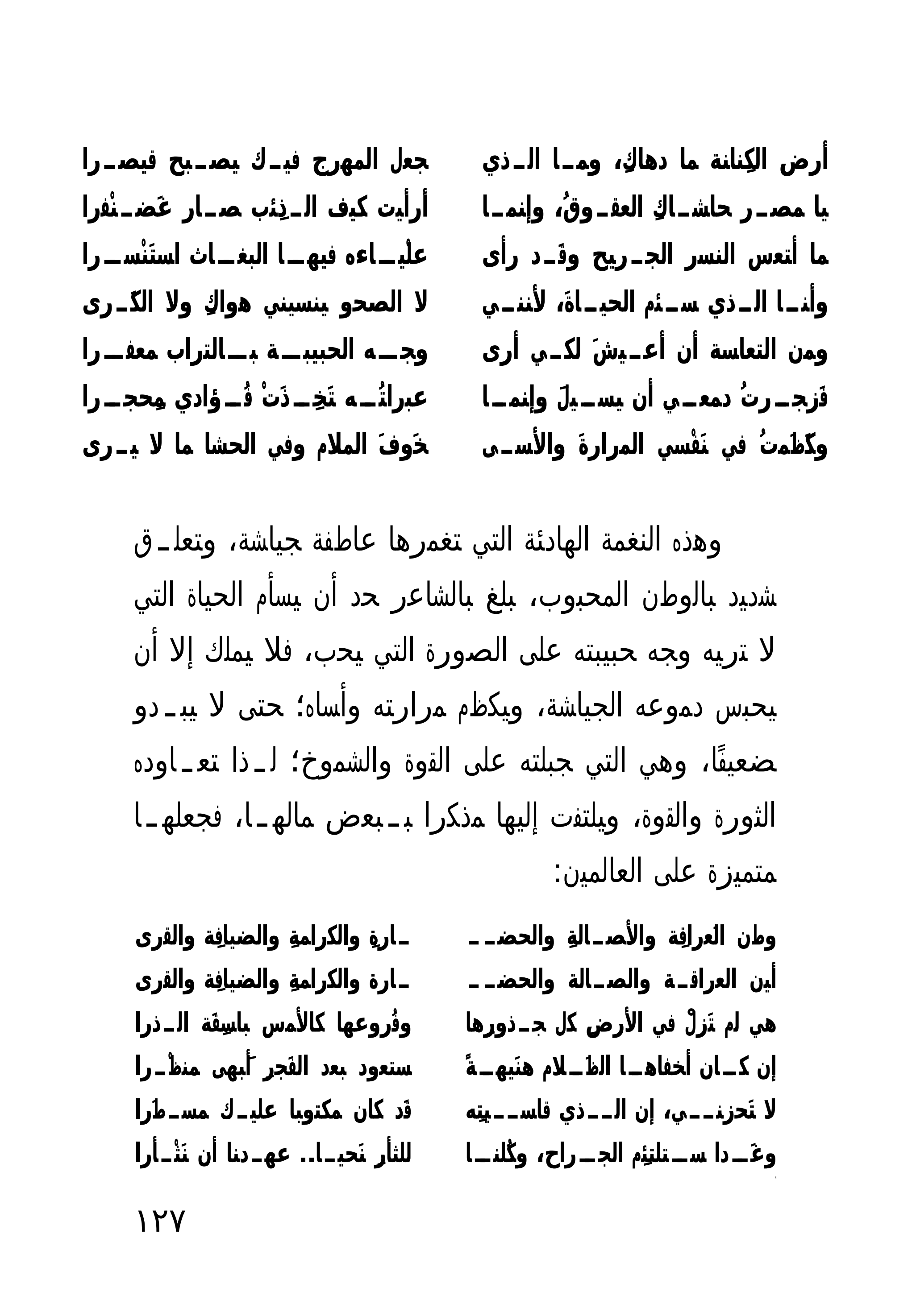
فالشعب صبور على الأذى؛ لأنه لا يملك غيـر ذلـك، فالمصيبة أعظم من أن تردها قدرته؛ لذا فإن أساه أقوى مـن جدران الكتمان، وبكاه أشد من التحمل والتصبر، بسبب مـا لاقاه هذا الشعب لسنوات طويلة في سجنه الكبيـر، ولـيس أقسى من أن يكون الوطن سجنًا كبيرا فيه القيـود والسـدود والسجان والتعذيب، ويصرح الشاعر بأن أبناء الشعب داخل هذا السجن الكبير قد انقسموا إلى ثلاثة: أولها المحطمـون، وهم الذي عمد النظام إلى التنكيل بهم في بطش شديد حتـى



أحالهم حطاما لا يستجمع قواه ولا يقوى على شيء، وثانيها المسيرون الذين لا يملكون الخروج عن المحاذير والخطوط الحمراء الكثيرة التي وضعها النظام، ولاحقتهم ويلاته فخضعوا رغما عنهم، وثالثها المخدرون، الذين خدعوا في الزعيم وأقواله وصدقوا أبواقه ووسائل دعايته، فأصابتهم البلادة والرغبة في التصديق ودعم النزوع إلى الفعل.

ويمس الشاعر بعض جوانب الواقع الأليم، فيتمنى لو تحدثت جدران السجون بما رأت وسمعت مما وقع للمصريين في هذا العهد البغيض، حيث كانت تهتك النساء ويساق الأحرار إلى جحيم العذاب الذي لا يدعهم حتى يخروا حطاما، في حين يمضي الزعيم في حقده وصلفه، ويستكمل الشاعر نعوته لعبد الناصر، فيصفه بالتافه والصعلوك والحاقد والطاغية، فلولا لطف ا لهلكت مصر.

وتغلب على الشاعر نزعته الوطنية، وحبه الشديد لوطنه، فيستنكر ما يقع بهذا الوطن الأبي، ويتعجب مما يرى وكأنه غير مصدق، ويشفق على وطنه مما حل به، وما هو فيه، فيقول:



أرض الكِنانة ما دهاكِ، ومـا الـذي ... جعل المهرج فيـك يصـبح قيصـرا

يا مصـر حاشـاكِ العقـوقُ، وإنمـا ... أرأيت كيف الـذِئب صـار غَضـنْفرا

ما أتعس النسر الجـريح وقـد رأى ... عليـاءه فيهـا البغـاث استَنْسـرا

وأنـا الـذي سـئم الحيـاةَ، لأنني ... لا الصحو ينسيني هواكِ ولا الكَـرى

ومن التعاسة أن أعـيشَ لكـي أرى ... وجـه الحبيبـة بـالتراب معفـرا

فَزجـرتُ دمعـي أن يسـيلَ وإنمـا ... عبراتُـه تَخِـذَتْ فُـؤادي مِحجـرا

وكَظَمتُ في نَفْسي المرارةَ والأسـى ... خَوفَ الملام وفي الحشا ما لا يُـرى

وهذه النغمة الهادئة التي تغمرها عاطفة جياشة، وتعلـق شديد بالوطن المحبوب، بلغ بالشاعر حد أن يسأم الحياة التي لا تريه وجه حبيبته على الصورة التي يحب، فلا يملك إلا أن يحبس دموعه الجياشة، ويكظم مرارته وأساه؛ حتى لا يبـدو ضعيفًا، وهي التي جبلته على القوة والشموخ؛ لـذا تعـاوده الثورة والقوة، ويلتفت إليها مذكرا بـبعض مالهـا، فجعلهـا متميزة على العالمين:

وطن العراقة والأصـالةِ والحضـ ... ـارةِ والكرامةِ والضيافِة والقِرى

أين العراقـة والصـالة والحضـ ... ـارة والكرامةِ والضيافِة والقرى

هي لم تَزلْ في الأرض كل جـذورها ... وفُروعها كالأمس باسِقَة الـذرا

إن كـان أخفاهـا الظَـلام هنَيهـةً ... ستعود بعد الفَجر أبهى منظـرا

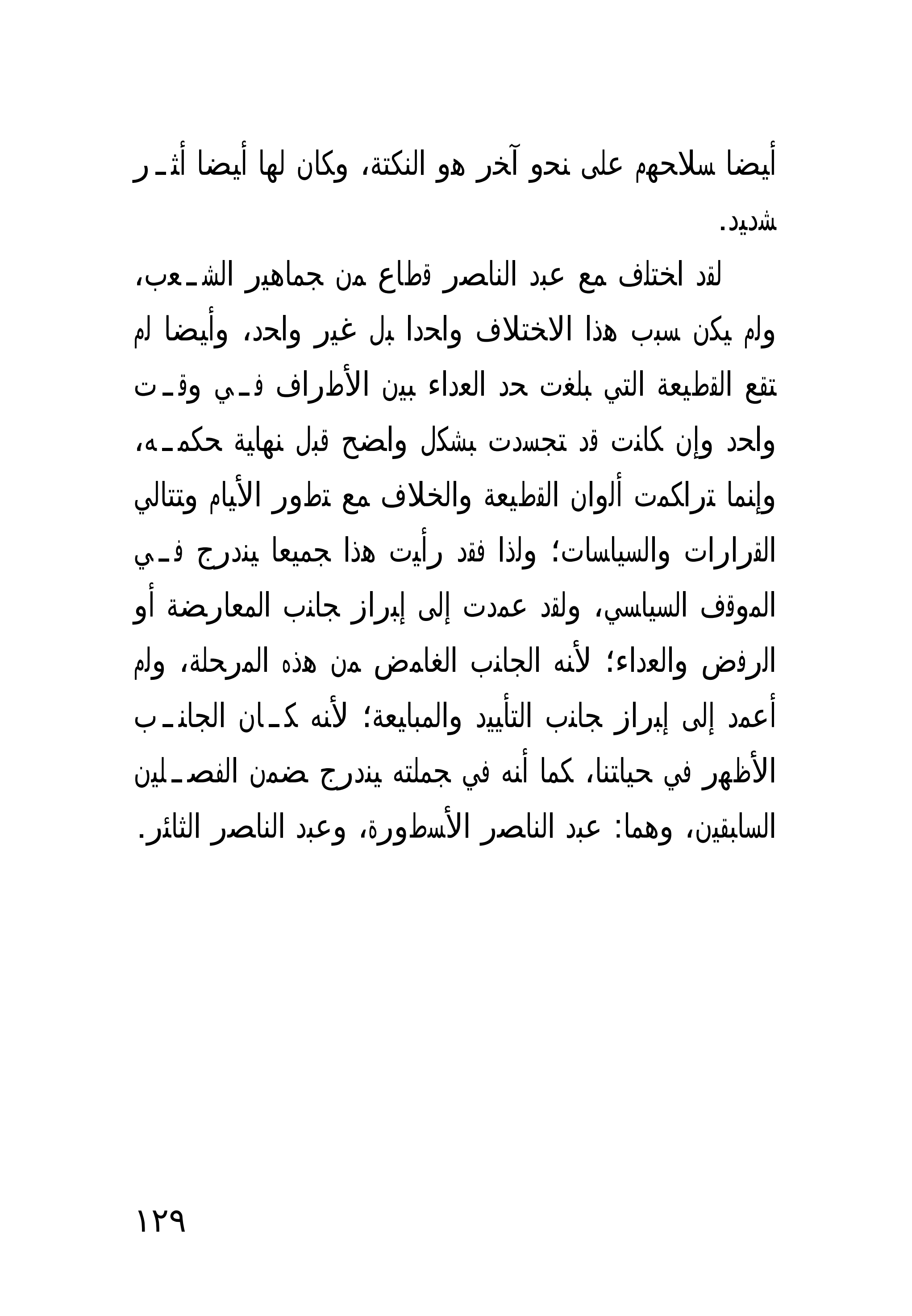
لا تَحزنـي، إن الـذي قاسـيته ... قَد كان مكتوبا عليـك مسـطَرا

وغَـدا سـتلتئِم الجـراح، وكُلنـا ... للثأرِ نَحيـا.. عهـدنا أن نَثْـأرا

ففي هذه المقطوعة لم يتعرض الشاعر لشخص الـزعيم وإن كان قد وصف عهد بالظلام، بخلاف المقطوعة السـابقة –مثلاً- التي وصفه فيها بالمهرج، والقيصر، والذئب. لكنـه عمد إلى استنفار همة الأمة للثورة، فمصر وطـن العراقـة والأصالة والحضارة والكرامة والضـيافة والقِـرى، وهـذه جميعا أقوى من أن تزول، فجذورها ضـاربة فـي أعمـاق الأرض، وفروعها باسقة الذرا. وهي جميعا أقوى مـن كـل طاغية، وأشمخ من كل فترات الزمان. وهيهات أن يحجبهـا ظلام أو عدوان؛ لذا كانت الثورة حتما على أبناء هذا الوطن العظيم كي تشرق الشمس من جديد، وتلتئم الجراح.

ولا يعنينا من هذه القصيدة الشهيرة ذائعة الصـيت، إلا أن نستدل بها على موقف الشاعر من عبد الناصر، اختلافًـا مع سياساته وقراراته، ورفضا لأسلوب حكمـه. وحيـث إن الشاعر لا يملك السلطة ولا السجون والتعـذيب أو أجهـزة الإعلام، وإنما يملك الكلمة، فقد سخرها ضد عدوه وغريمه، فسخر منه وسبه، ورفضه قبل أن يرفض سياساته.

فكانت الكلمة سلاحا شعبيا ضد نظام حكم بغيض، لكنها كانت سلاح المبدعين والمثقفين، أما العامة فكانـت الكلمـة



أيضا سلاحهم على نحو آخر هو النكتة، وكان لها أيضا أثـر شديد.

لقد اختلف مع عبد الناصر قطاع من جماهير الشـعب، ولم يكن سبب هذا الاختلاف واحدا بل غير واحد، وأيضا لم تقع القطيعة التي بلغت حد العداء بين الأطراف فـي وقـت واحد وإن كانت قد تجسدت بشكل واضح قبل نهاية حكمـه، وإنما تراكمت ألوان القطيعة والخلاف مع تطور الأيام وتتالي القرارات والسياسات؛ ولذا فقد رأيت هذا جميعا يندرج فـي الموقف السياسي، ولقد عمدت إلى إبراز جانب المعارضة أو الرفض والعداء؛ لأنه الجانب الغامض من هذه المرحلة، ولم أعمد إلى إبراز جانب التأييد والمبايعة؛ لأنه كـان الجانـب الأظهر في حياتنا، كما أنه في جملته يندرج ضمن الفصـلين السابقين، وهما: عبد الناصر الأسطورة، وعبد الناصر الثائر.

هوامش الفصل الثالث

(١) كان طالبا في كلية دار العلوم، وكتب عددا من القصائد الحادة ضد عبد الناصر ورجاله ونظامه لم ينشر أكثرها، وقتل بطعنة خنجر وهو يلعب الكرة مع رفاقه.

(٢) يحفظ هذين البيتين عدد من أهل الأدب، وقد سمعتهما من غير واحد، منهم الدكتور عبد الصبور شاهين.

(٣) السابق.

(٤) نشرها الشاعر في ديوان "الناس في بلادي" وذكر أنها ضد الاستعمار وأعوانه. لكنه قال لأصدقائه: إنها ضد عبد الناصر. وبعد سنوات أكد ذلك الأستاذ أنيس منصور في كتابه (عبد الناصر المفترى عليه والمفتري علينا).

(٥) صلاح عبد الصبور، ديوان الناس في بلادي، ص ٢٩.

(٦) أحمد عبد المعطي حجازي، ديوان (مدينة بلا قلب)، ص ١٨.

(٧) صلاح عبد الصبور، ديوان أقول لكم، ص ٧.

(٨) السابق، ص ٧٠.

(٩) محمد مهران السيد، ديوان بدلاً من الكذب، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٢٧.

(١٠) أمل دنقل، ديوان البكاء بين يدي زرقاء اليمامة، مدبولي القاهرة، ١٩٦٨.

(١١) جريدة الأهرام في ١٩٦٦/٤/٨.

(١٢) مجلة المصور في ١٩٦٦/١/٢١.

(١٣) مجلة المصور في ١٩٦٤/٥/٢٢.

(١٤) جريدة الجمهورية في ١٩٦٦/٣/٣١.

(١٥) البكاء بين يدي زرقاء اليمامة، ص ١١٢.

(١٦) حسين عرب، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، ص ٨٤.

(١٧) السابق.

(١٨) ذكر لي هذه الأبيات الكاتب الأستاذ أحمد رائف.

(١٩) شاعر سكندري لمع في الثلاثينيات من هذا القرن، وأصدر خمسة دواوين، واشتهر بقلب العندليب، وعمل بالمحاماة، واشتغل بالسياسة، واعتقل مرات كثيرة.

(٢٠) مخطوط بمكتبتي.

(٢١) حامد نفادي، ديوان امرأة في محنة، ص ٣٨.

(٢٢) شاعر قاهري ربطته صلات بأدباء الإسكندرية الكبار، وكان أحد ضحايا المرحلة الناصرية.

(٢٣) مخطوط بمكتبتي.

(٢٤) مقدمة القصيدة بقلم إبراهيم طلعت، مخطوط بمكتبتي.

(٢٥) السابق.

(٢٦) القصيدة كاملة تقع في أربعة وستين بيتًا في مخطوط بمكتبتي.

ملحق أشهر القصائد

في

عبد الناصر

جمال عبد الناصر

للشاعر: نزار قباني

(١)

قتلناك.. يا آخر الأنبياء

قتلناك

ليس جديدا علينا

اغتيال الصحابة والأولياء

فكم من رسول قتلنا..

وكم من إمامٍ

ذبحناه وهو يصلي صلاة العشاء

فتاريخنا كله محنةٌ

وأيامنا كلها كربلاء

(٢)

نزلت علينا كتابا جميلا

ولكننا لا نجيد القراءة

وسافرتَ فينا لأرض البراءةْ

ولكننا.. ما قبلنا الرحيلا

تركناك في شمس سيناء وحدك
تُكلم ربك في الطور وحدك
وتعرى..
وتشقى..
وتعطشُ وحدك..
ونحن هنا.. نجلس القُرفصاء
نبيع الشعارات للأغبياء
ونحشو الجماهير تبنًا وقشًا
ونتركهم يعلكون الهواء..

(٣)

قتلناك..
يا جبل الكبرياء
وآخر قنديل زيت
يضيء لنا في ليالي الشتاء
وآخر سيف من القادسيةْ
قتلناك نحن بكلتا يدينا
وقلنا المنيةْ..
لماذا قبلت المجيء إلينا؟

فمثلك كان كثيرا علينا..

سقيناك سم العروبة حتى شبعت

رميناك في نار عمان.. حتى احترقت

أريناك غدر العروبة حتى كفرت

لماذا ظهرت بأرض النفاق..

لماذا ظهرت؟

فنحن شعوب من الجاهلية.

ونحن التقلب

نحن التذبذب

والباطنية

نبايع أربابنا في الصباح

ونأكلهم حين تأتي العشيةْ..

(٤)

قتلناك

يا حبنا وهوانَا..

وكنتَ الصديقَ، وكنتَ الصدوق

وكنتَ أبانا..

وحين غسلنا يدينا.. اكتشفنا

بأنّا قتلنا منانا..
وأن دماءك فوق الوسادة
كانت دامنا

***

نفضتَ غُبار الدراويش عنّا
أعدت إلينا صبانا
وسافرت فينا إلى المستحيل
وعلّمتنا الزهو والعنفُوانا..
ولكننا..
حين طال المسير علينا
وطالت أظافرنا.. ولحانا
قتلنا الحصانا..
فتبت يدانا..
فتبت يدانا..
أتينا إليك – بعاهاتنا
وأحقادنا.. وانحرافاتنا..
إلى أن ذبحناك ذبحا
بسيف أسانا..

فليتك في أرضنا ما ظهرت

وليتك كنت نبي سوانا..

(٥)

أبا خالد.. يا قصيدة شعرٍ..

تُقال

فيخضر منها المداد

إلى أين؟

يا فارس الحلم تمضي..

وما الشوطُ حين يموت الجواد؟

إلى أين؟

كل الأساطير ماتتْ

بموتك.. وانتحرت شهرزاد

***

وراء الجنازة.. سارت قريشٌ

فهذا هشام

وهذا زياد..

وهذا يريقُ الدموع عليك

وخِنجره تحت ثوب الحداد

وهذا يجاهد في نومه

وفي الصحو

يبكي عليه الجهاد..

وهذا يحاول بعدك ملكًا..

وبعدك..

كل الملوك رماد..

وفود الخوارج.. جاءتْ جميعا

لتنظم فيك.

ملاحم عشقْ..

فمن كفروك..

ومن خَونُوك..

ومن صلبوك بباب دمشق..

***

أنادي عليك.. أبا خالد

وأعرف أني أنادي بواد

وأعرف أنك لن تستجيب

وأن الخوارقَ ليستْ تُعاد..

رسالة إلى جمال عبد الناصر

للشاعر: نزار قباني

(١)

والدنا جمال عبد الناصر:

عندي خطاب عاجل إليك..

من أرض مصر الطيبة

من ليلها المشغول بالفيروز والجواهر

ومن مقاهي سيدي الحسين، من حدائق القناطر

من تُرع النيل التي تركتها..

حزينة الضفائر..

عندي خطاب عاجلٌ إليك

من الملايين التي أدمنت هواك

من الملايين التي تريد أن تراك

عندي خطاب كله أشجان

لكنني

لكنني يا سيدي

لا أعرف العنوان..

والدنا جمالَ عبد الناصر:
الزرع في الغيطان، والأولاد في البلد
ومولد النبي، والمآذن الزرقاء
والأجراس في يوم الأحد
وهذه القاهرةُ التي غفتْ..
كزهرة بيضاء.. في شعر الأبد..
يسلمون كلهم عليك
يقبلون كلهم يديك..
ويسألون عنك كل قادمٍ إلى البلد
متى تعود للبلد؟..

(٣)

حمائم الأزهر يا حبيبنا.. تهدي لك السلام
معدياتُ النيل يا حبيبنا.. تهدي لك السلام..
والقطن في الحقول، والنخيلُ، والغمام..
جميعها.. جميعها.. تُهدي لك السلام..
كُرسيك المهجور.. في منشية البكري
يبكي فارس الأحلام..
والصبر لا صبر له. والنوم لا ينام.

وساعةُ الجدار.. من ذهولها..
ضيعتِ الأيام..
يا من سكنتَ الوقتَ والأيام
عندي خطاب عاجلٌ إليك..
لكنني..
لكنني يا سيدي.. لا أجد الكلام..
لا أجد الكلام..

(٤)

والدنا جمال عبد الناصر:
الحزن مرسوم على الغيوم، والأشجار، والستائر
وأنت سافرت، ولم تسافر..
فأنت في رائحة الأرض، وفي تفتح الأزاهر..
في صوت كل موجةٍ، وصوت كل طائر
في كتب الأطفال، في الحروف، والدفاتر
في خضرة العيون، وارتعاشة الأساور..
في صدر كل مؤمنٍ، وسيف كل ثائر..
عندي خطاب عاجلٌ إليك..
لكنني..

لكنني يا سيدي..

تسحقني مشاعري..

يا أيها المعلم الكبير

كم حزنُنا كبير..

كم جرحنا كبير!

لكننا..

نقسم با   العلي القدير

أن نحبس الدموع في الأحداقْ..

ونخنق العبرة..

نقسم با   العلي القدير

أن نحفظ الميثاق ونحفظ الثورةْ..

وعندما يسألنا أولادنا

من أنتُم؟

في أي عصر عشتم؟..

في عصر أي ملهم؟

في عصر أي ساحر؟

نجيبهم: في عصر عبد الناصر..

ا   .. ما أروعها شهادة!



أن يوجد الإنسان في زمان عبد الناصر..

الهرم الرابع

للشاعر: نزار قباني

(١)

السيد نام

السيد نام

السيد نام كنوم السيف العائِد من إحدى

الغَزواتْ

السيد يرقد مثل الطفل الغافي.. في حضن

الغابات

السيد نام

وكيف أصدق أن الهرم الرابع مات؟

القائد لم يذهب أبدا..

بل دخل الغرفة كي يرتاح

وسيصحو.. حين تُطل الشمس

كما يصحو عطُر التفاح

الخبز سيأكله معنا..

وسيشرب قهوته معنا..

ونقولُ له..

ويقولُ لنا..

القائد يشعر بالإرهاق..

فخلّوه يغفو ساعات..

(٢)

يا من تبكون على ناصر..

السيد كان صديق الشمس.

فكفّوا عن سكْب العبرات..

السيد مازال هنا..

يتمشى فوق جسور النيل..

ويجلس في ظل النخلاتْ..

ويزور الجيزة عند الفجر..

ليلثم حجر الأهرامات

يسألُ عن مصر، ومن في مِصر..

ويسقي أزهار الشُرفاتْ..

ويصلي الجمعة.. والعيدين..

ويقضي للناس الحاجات..

مازال هنا عبد الناصر..

في طمي النيل، وزهر القطن..
وفي أطواق الفلاحات.
في فَرح الشعب.
وحزن الشعب..
وفي الأمثال، وفي الكلمات..
مازال هنا عبد الناصر.
من قال الهرم الرابع ماتْ؟
يا من يتساءل: أين مضى عبد الناصر؟
يا من يتساءلُ:
هل يأتي عبد الناصر..
السيد موجود فينا..
موجود في أرغفة الخبز..
وفي أزهار أوانينا..
مرسوم فوق نجوم الصيف،
وفوق رمال شواطينا..
موجود في أوراق المصحف..
في صلوات مصلينا..
موجود في كلمات الحب..

وفي أصوات مغنينا..

موجود في عرق العمال..

وفي أسوان.. وفي سينا..

مكتوب فوق بنادقنا..

مكتوب فوق تحدينا..

السيد نام.. وإن رجعتْ

أسراب الطير.. سيأتينا..

***

عودة ذي الوجه الكئيب

للشاعر: صلاح عبد الصبور

هل عاد ذو الوجه الكئيب؟

ذو النظرة البكماء والأنف المقوس والندوب؟

هل عاد ذو الظفر الخضيب؟

ذو المشية التياهة الخيلاء تنقر في الدروب

لحنا من الإذلال والكذب المرقش والنعيب

ومدينتي معقودة الزنار

عمياء ترقص في الظلام

ويصفر الرجال والقواد والقراد والحاوي الطروب

في عرس ذي الوجه الكئيب



من أين جاء؟

ويقول سادتنا الأماجد حين يزوون الجبين

شأن الثقاة العارفين:

من السماء..

من أين جاء؟

ويظل أهل الفضل فينا حائرين

ويتمتمون على مسابحهم وهم يتلاغطون

هذا ابتلاء ا !! هذا من تدابير القضاء

من أين جاء؟

ويقول أصحابي وهم كالزعزع النكباء قوة

العزم يلمع في عيونهم، وتجري في عروقهم الفتوة:

من الجحيم.

وكيف جاء؟

***

هذا "أبو الهول" المخيف

نصب السرادق عند باب مدينتي للقادمين

والعائدين

والهاربين إلى القضاء

والوالجين إلى البناء

لا.. لم يدع أحدا..

إلا وألقى دونه هذا السؤال

من خالق الدنيا؟

الملتحون تهللوا، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض:

ا خالقها.. وهذا لا يصح به سؤال.

وعوى أبو الهول المخيف، وقلب الوجه الكئيب إلى اليسار

ورمى بجمع الملتحين إلى الدمار

والأمردون تأملوا، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض:

لا نستطيع!! بل نحن نعرف!! أنه قدم الطبيعة.

وعوى أبو الهول المخيف، وقلب الوجه الكئيب إلى اليسار

ورمى بجميع الأمردين إلى الدمار.

وتقدم الدجال والقواد والقراد والحاوي الطروب

وتضعضعوا، قالوا: معاذك! أنت خالقها، أجل..

أنت الزمان

أنت المكان

أنت الذي كان

أنت الذي سيكون في آتي الأوان

وعوى أبو الهول المخيف وقلّب الوجه الكئيب إلى اليمين

وأشار، ثم تواثبوا فوق الأرائك جالسين

***

سيظل ذو الوجه الكئيب وأنفه ونيوبه

وخطاه تنقر في حوائطنا الخراب

إلا إذا

إلا إذا مات

سيموت ذو الوجه الكئيب

سيموت مختنقًا بما يلقيه من عفن على وجه السماء

في ذلك اليوم الحبيب

ومدينتي معقودة الزنار مبصرة سترقص في الضياء

في موت ذي الوجه الكئيب



أغنية إلى عبد الناصر

للشاعر: "محمد إبراهيم أبو سنة"

***

يا حب بلادي الأول

تبحر في عينيك الآمال

تبدأ رحلتها

بين خمائل هذا الحب الأجيال

في مصر العليا

يخفق قلبك

في الأغنية الصخرية

فوق جواد مندفع أبيض

في أحجار السد

يخفق قلبك

في مدن الدلتا

في الأبنية الطينية

في المدخنة المرتفعة

تشتعل حماسا

يخفق قلبك

تحت ثياب الريفي المجهد

يعرف سر العالم

في بضعة أغنام

يخفق قلبك

تحت ثياب العرس

يخفق قلبك

فوق مناديل العشاق

يخفق قلبك

في مدن الساحل

يخفق قلبك

في السفن التائهة بأعلى البحر

في الأغنية العذراء

تنشدها راعية بدوية

في بهجة حقل

تتدفق فيه مياه الصيف

يخفق قلبك

فوق الأعلام المرتفعة

في قوس القمر المولود على ظهر الغيم

يخفق قلبك

في ساعات العشاق

قرب الموعد

يخفق قلبك

في كل نبات الشاطئ

عبر الجسد الأخضر

في عيني مصر

يخفق قلب

فوق منارات البحر

فوق الأبراج

في الكهف المغلق في الصحراء

يخفق قلبك

في الحكمة ينشدها شاعر

يخفق قلبك

في مأتم طفل

فوق سرير مريض

يخفق قلبك

في الريح الخارجة من الأنهار

في الضوء الضاحك في الأزهار

يخفق قلبك

في أدغال الصمت

في أعراس الكلمات

في كل فؤاد يبني بيتًا للحب

يخفق قلبك

لكني يا حب بلادي الأول

أسمع في قلبك

خفق فؤاد حبيبتك الساهرة على ضفة نهر

في قلبك تخفق مصر

***

الليلة الحزينة

للشاعر: محمد عبد المنعم الأنصاري

كنـا نعـود إلـى البيـوت يشـدنا ... أمل.. وإن كان المساء حزينًـا
لم ندفن الشهداء بعـد، ولـم تـزل ... عمان جرحـا نـافرا.. وأنينًـا
نستطلع الأنباء.. فـي قلـق ثـوى ... كالجمر ما بين الضلوع دفينًـا
وجلست بـين الجالسـين.. لعلنـا ... نلقى لدى الأنباء مـا يشـفينا
لكـن لـدى الأنبـاء أي فجيعـة ... راحت لهول جنوننـا.. تلقينـا
أصغيت للنبأ الرهيب، وغصت فـي ... موج الذهول على الأريكة حينًا
ثم انتبهت إلـى الجمـوع.. وكلنـا ... يستمهل الشـك المعـذب فينـا
فعسى تعود لـك الحيـاة.. وربنـا ... بالمعجزات عليك ليس ضـنينًا
أو لست معجـزة السـماء؟ وأننـا ... متنا وكنت أتيت كـي تحيينـا
لكنمـــا أي مشــيئة؟ ... نفذت.. وصار الشك فيك يقينا

عودتنـــا ألا نفكـــر حينًـــا ... في الأمر.. حتى كاد لا يعنينـا
وحملـت أعبـاء الحيـاة جميعهـا ... عنا.. وسرت بها كما يرضـينا
وســألت، أعطينـــاك دون تـــردد ... أغلى الذي قد كان فـي أيـدينا
فزرعتـه فـي تربـة.. معطـاءة ... ونما نماء الحـب فـي وادينـا
ورحلـت عنـا فجـأة.. وتركتنـا ... من يا ترى من بأسنا يحمينـا؟

عمان كانـت يـا جمـال.. بدايـة ... تستنهض الحزن المخبـأ فينـا

من بعد ما كنا نسينا طعمه   زمنًا.. ولا عجب أقول نسينا

فلأنت قد علّمتنا ألا نطأْ   طئ رأسنا للحزن كي يطوينا

لكنه بالأمس عاد.. كأنما   يلقي بكل حشاشة سكينا

الحزن من (عمان) لا يبقي على   شيء نلوذ به..ولا يبقينا

إلاك تتجه القلوب إليك في   حمى صراع كنتَ فيه رزينا

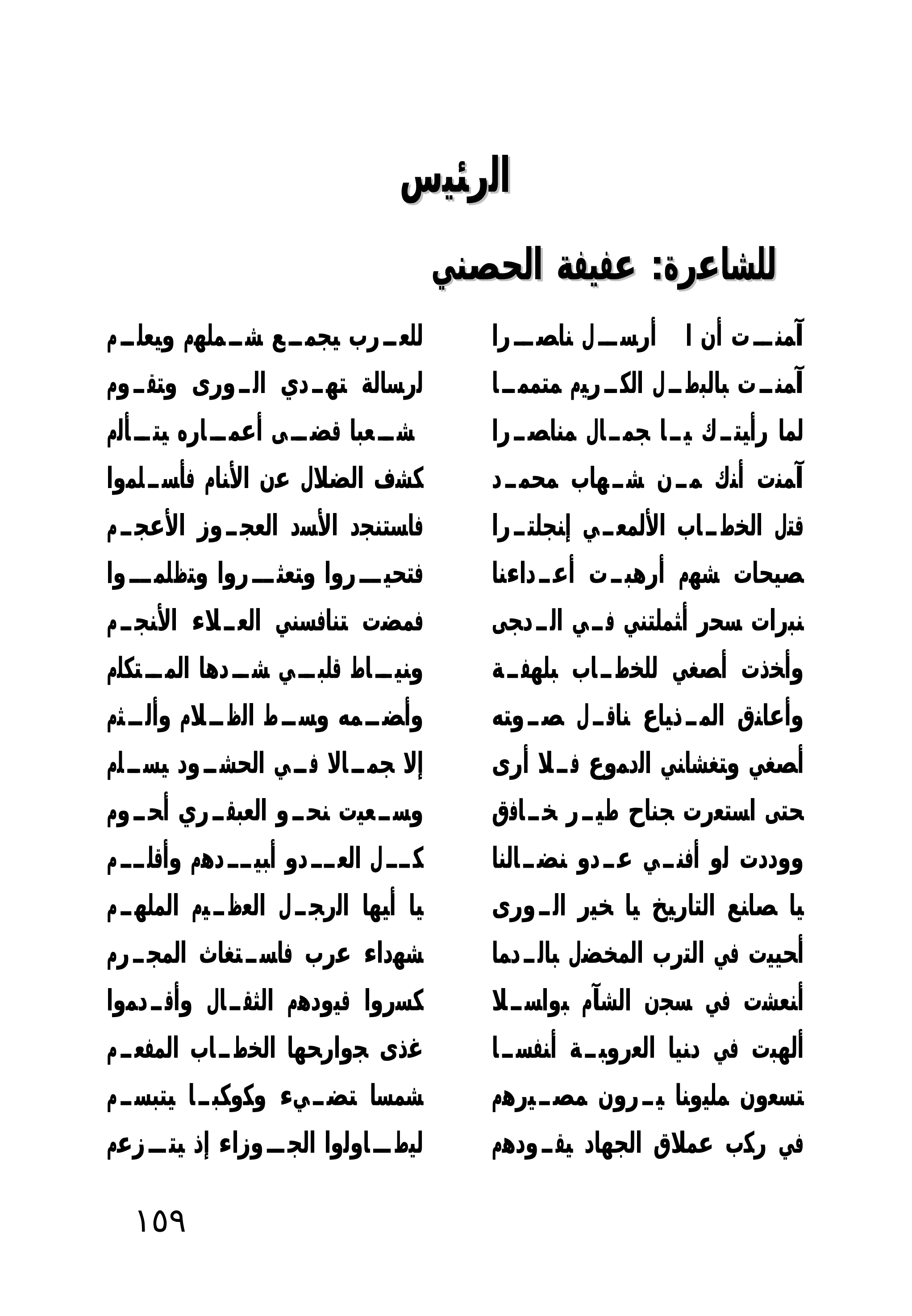
حتى انتصرت على المنون بجولة   وبجولة أخرى سقطت طعينا

فسقطت أروع ما يكون بسالة   يا روعة الحزن المهيب.. خذينا

طوفي بنا بين المدائن والقرى   لنهيم تحت سمائها.. باكينا

نبكيك يا غدنا وحاضرنا ويا   نورا إلى أمجادنا.. يهدينا

إن البكاء يريحنا.. لكنه   هيهات من آلامنا يشفينا



الرئيس

للشاعرة: عفيفة الحصني

آمنت أن ا أرسل ناصرا ... للعرب يجمع شملهم ويعلم
آمنت بالبطل الكريم متمما ... لرسالة تهدي الورى وتقوم
لما رأيتك يا جمال مناصرا ... شعبا قضى أعماره يتألم
آمنت أنك من شهاب محمد ... كشف الضلال عن الأنام فأسلموا
قتل الخطاب الألمعي إنجلترا ... فاستنجد الأسد العجوز الأعجم
صيحات شهم أرهبت أعداءنا ... فتحيروا وتعثروا وتظلموا
نبرات سحر أثملتني في الدجى ... فمضت تنافسني العلاء الأنجم
وأخذت أصغي للخطاب بلهفة ... ونياط قلبي شدها المتكلم
وأعانق المذياع ناقل صوته ... وأضمه وسط الظلام وألثم
أصغي وتغشاني الدموع فلا أرى ... إلا جمالا في الحشود يسلم
حتى استعرت جناح طير خافق ... وسعيت نحو العبقري أحوم
ووددت لو أفني عدو نضالنا ... كل العدو أبيدهم وأقلم
يا صانع التاريخ يا خير الورى ... يا أيها الرجل العظيم الملهم
أحييت في الترب المخضل بالدما ... شهداء عرب فاستغاث المجرم
أنعشت في سجن الشآم بواسلا ... كسروا قيودهم الثقال وأقدموا
ألهبت في دنيا العروبة أنفسا ... غذى جوارحها الخطاب المفعم
تسعون مليونا يرون مصيرهم ... شمسا تضيء وكوكبا يتبسم
في ركب عملاق الجهاد يقودهم ... ليطاولوا الجوزاء إذ يتزعم

دم الشعب

للشاعر: صلاح جودت

قـم واسـمعها مـن أعمـاقي   فأنا الشعب
ابـق فأنـت السـد الـواقي   لمنى الشعب
ابـق فأنـت الأمـل البـاقي   لغد الشعب

***

أنـت الخيـر وأنـت النـور
أنـت الصـبر علـى المقـدور
أنـت الناصـر والمنصـور
ابـق فأنـت حبيـب الشـعب

دم للشعب

***

قـم إنـا جففنـا الـدمعا   وتبسمنا
قـم إنـا أرهفنـا السـمعا   وتعلمنا
قـم إنـا وحـدنا الجمعـا   وتقدمنا
قـم للشـعب وبـدد يأسـه
واذكـر غـده واطـرح أمسـه
قـم وادفعنـا بعـد النكسـه

وارفـع هامـة هـذا الشـعب

دم للشعب

قــم للشــعب وقــل للنــاس — قل للعصر

فوق الجـرح وفـوق اليـأس — عاشت مصر

وغــدا ســتحيي الأجــراس — يوم النصر

قــم إنــا أعــددنا العــده

قــم إنــا أعلينــا الوحــده

فارسـم أنـت طريـق العـوده

وتقــدم يتبعــك الشــعب

دم للشعب

من إصدارات المؤلف

أولا: في الأدب العربي الحديث

١- اتجاهات الشعر السكندري في النصف الأول من القرن العشرين.

٢- خليل شيبوب رائد التجديد الشعري.

٣- أناشيد الرافعي – دراسة فنية.

٤- أثر النكسة في الشعر العربي (١٩٥٦-١٩٧٣).

٥- الشعر العربي الحديث.

٦- دراسات في اتجاهات الشعر العربي في الإسكندرية.

٧- الشعر السكندري المعاصر.

٨- الميلاد وحكايات الخريف – دراسة في شعر يس الفيل.

٩- دراسات في الأدب السعودي – بالاشتراك مع د. عباس عجلان.

١٠- تغريدة البجع – دراسة في شعر عباس عجلان.

١١- عبد الناصر في الشعر العربي الحديث.

١٢- في أدب الأطفال.

١٣- حسن توفيق العدل – رائد الدراسة الأدبية الحديثة.

١٤- تغريبة بني حتحوت – بين السيرة الشعبية والرواية التاريخية.

١٥- الإعلام والثقافة وأثرهما في الأدب.

ثانيا: تاريخ الأدب العربي:

١- تاريخ الشعر العربي – جزءان.

٢- شعر الزهد عند غير الزهاد.

٣- أوزان المتنبي وقوافيه لأبي العلاء المعري –تحقيق ودراسة.

٤- في الأدب الهازل.

٥- مقاييس الفصاحة في القرن الخامس الهجري.

ثالثًا: في النقد الأدبي:

١- النقد الأدبي الحديث.

٢- نحو تنظير نقدي للأدب الإسلامي الحديث.

٣- النقد الأدبي.

٤- توفيق الحكيم ناقدا.

رابعا: في الثقافة العامة:

١- الإرهاب المقدس – تقديم وتعريب.